المربي

نفحة عبير

من سيرة البشير النذير ﷺ

تصنيف

د. يحيى بن إبراهيم اليحيى

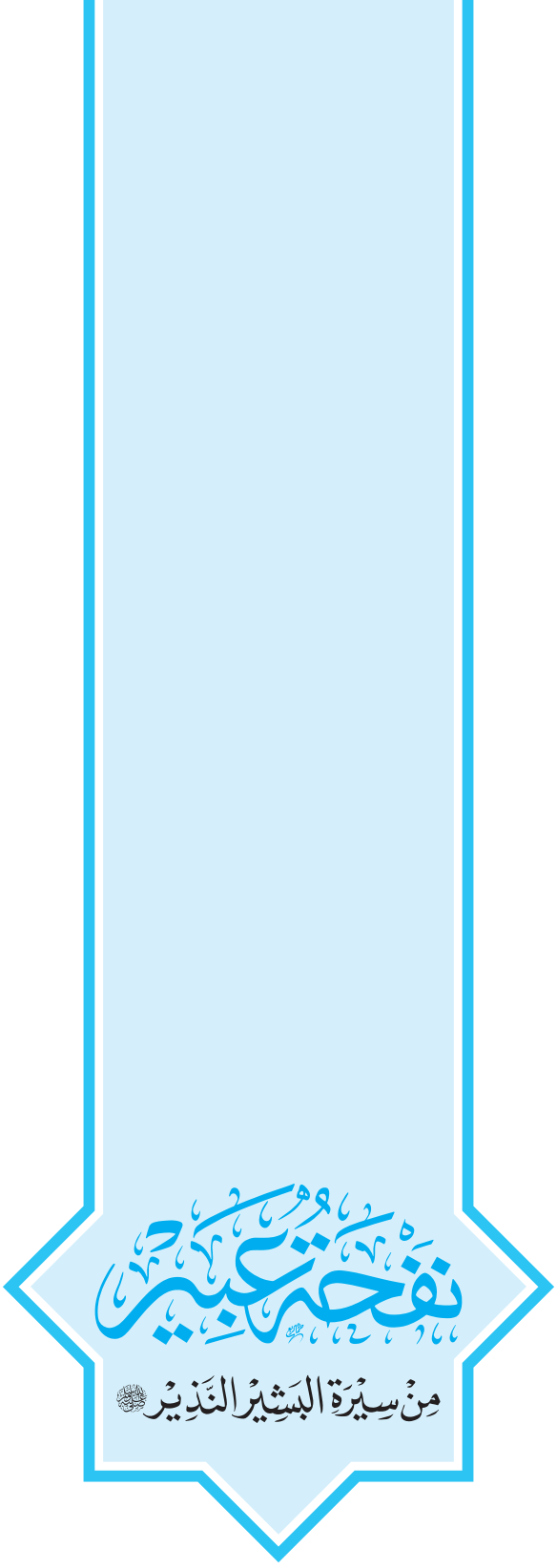
نفحة عبير
من سيرة البشير النذير ﷺ

نفحة عبير

من سيرة البشير النذير ﷺ

لكل مسلم حق طبع هذا الكتاب دون تغيير

رقم الطبعة	الرابعة
سنة الطبع	١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م
عدد الصفحات	١٢٨ صفحة
المقاس	١٧ × ٢٤
رقم الإيداع	٢٠٢٠/٩٩٢٣م
الترقيم الدولي	I.S.B.N 978-977-6546-21-8

موزع معتمد

للطبع والنشر والتوزيع والترجمة

جمهورية مصر العربية - الإسكندرية

+201220482504

+201003225280

e-mail: prdise2030@gmail.com

markaz.almurabbi@gmail.com

طبعة مزيدة ومنقحة

نفحة عبير

من سيرة البشير النذير ﷺ

تصنيف

د. يحيى بن إبراهيم اليحيى

المربي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من استنّ بسنته واهتدى بهديه واقتفى أثره وسار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الميزان الذي تعرض عليه أحوال الخَلق، على خُلقه وسيرته وهديه، وببعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبق طريق يُوصل إلى مرضاة الله وجَنّته سوى طريقه عليه أفضل الصلاة والسلام؛ فقد أقام وسافر، وسالم وحارب، وباع واشترى، وأخذ وأعطى، وعامل الناس فساسهم مؤمنهم وكافرهم أحسن سياسة، ولم يحتجب عن أصحابه أبدًا حتى لقي الله، ولاقى من صنوف الأذى ومن أنواع البلاء والشدة ما لم يلقه أحد، وكانت العاقبة والنصر له.

وكل طالب للحق يجد في سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ينير بصيرته ويفتح له آفاقًا في العلم والعمل، فقد أودع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها من الكمال ما صارت به منبع هداية لكل متطلب للحق.

بعث الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً للعالمين على حين فترةٍ من الرسل وضلالٍ من البشر وانحرافٍ في الفطر، وواجه رُكامًا هائلًا من الضلال والانحراف والبعد عن الله، ولن يواجه أحدٌ عشر مِعشار ما واجهه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لقد بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أشدِّ

حالٍ بُعث عليها نبيٌّ من الأنبياء وفترةٍ وجاهلية، ما يرون أن دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقانٍ فرق بين الحق والباطل...»[1]، فأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، فأحبّه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفدَوْه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم، واقتدَوْا به في كل صغيرةٍ وكبيرة، واتخذوه نِبراسًا لهم يهتدون به فصاروا أئمة الهدى وقادة البشر.

وإذا عرف المرء ما كانت عليه الأمم قبل مبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الظلم والفساد والجهل والظلام عرف أثر هذا النور العظيم حقّ المعرفة، وعرف عظم الجهد الذي بذله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضخامة العمل والبناء الذي أخرج به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام البشر من الشقاء الذي كانت فيه إلى سعادة الدنيا والآخرة.

إن ضعف الاقتداء بسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترك الأخذ بها في حكم الناس وسياستهم من أعظم أسباب ما أصاب المسلمين من تشتت وتفرق وضعف وهوان، وقد حض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين على التمسك بها وحذرهم مما يخالفها فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور**».

ومن ضعف الاقتداء بسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتصار كثير من المسلمين على قراءتها في الأندية والمحافل دون تجاوز ذلك إلى مواضع الاهتداء

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٩/ ٢٣٠)، وابن حبان (١٤/ ٤٨٩).

والعمل. ومن أسباب ذلك جهل بعضهم بمقاصد دراسة السيرة التي من أهمها الاتباع والاقتداء، أو جهلهم بكيفية الاقتداء بها.

إن سيرة رسول الله ﷺ رسمت المنهج الصحيح لهداية البشر وسياسة الدنيا فأخرجت الناس من الظلمات إلى النور ومن الشقاء إلى السعادة، وإن من أعظم أسباب ضعف كثيرٍ من المسلمين في الأزمان المتأخرة تبنِّيهم لطرائق أعداء الإسلام في التعليم والبحث وأكثر شؤون الحياة، فأدى ذلك إلى إغفالهم الاهتداء بجوانب كثيرة من هذه السيرة المباركة.

وفي هذه النفحة من عبير سيرة النبي ﷺ تذكرة بشيء من طيّب أخباره وأيامه وفيها إظهار بعض المعاني الإيمانية وبعض جوانب الاقتداء، فأسأل الله تعالى أن ينفع بها كاتبها وقارئها ومستمعها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

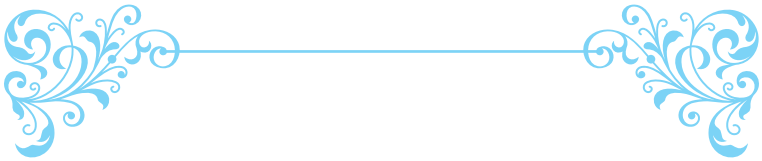

بناء الكعبة

يتضح من قصة بناء الكعبة شيء من عظمة البيت الحرام ومنزلته؛ فلما أراد الله تعالى تشريف خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ برفع قواعد البيت الحرام أمره أن يسكن من ذريته بواد غير ذي زرع، فحمل إبراهيم زوجه هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ووضعهما حيث لا أنيس ولا معين.

قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (جاء إبراهيم بها وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جِرابًا فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماء.

ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيعنا -وفي رواية: فقالت حسبي- ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم، حتى بلغ: يشكرون.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى -أو قال يتلبّط[1]- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبلٍ في الأرض يليها فقامت عليه -وفي رواية: تستغيث ربها وتدعوه- ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مراتٍ - قال ابن عباس: قال النبي ﷺ فذلك سعيُ الناس بينهما - فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صه -تريد نفسها- ثم تسمّعَت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غَوَاثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم (وفي رواية: فناداها جبريل فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجَر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكَلَكُما؟ قالت: إلى الله، قال: وكلكما إلى كافٍ) فبَحَث بعَقِبه -أو قال بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغرِف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أمَّ إسماعيل، لو تركت زمزم -أو قال لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عينًا مَعينًا**»[2].

(١) أي يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض ويقرب منها.

(٢) أي ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض، فلما خالطها تحويط هاجر داخلها كسب البشر فقصرت على ذلك.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيْعة؛ فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، (وفي رواية: لا تخافي أن ينفد الماء، وفي رواية: لا تخافي على أهل هذا الوادي ظمَأً؛ فإنها عينٌ يشرب بها ضِيفان الله، فقالت: بشرك الله بخير).

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله. فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهُم أو أهل بيتٍ من جرهم مقبِلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا[1] فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جَرِيًّا أو جريَّيْن فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال وأمُّ إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحبّ الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم وشَبّ الغلام وتعلم العربية منهم وأَنفَسَهم[2] وأَعجَبَهم حين شبّ فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم.

وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل[3] يطالع

(١) وهو الذي يتردد على الماء.

(٢) كثرت رغبتهم فيه وصار نفيسًا عندهم.

(٣) وليس في الحديث ما ينفي زيارة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مكة قبل ذلك، قال ابن حجر: (وقد جاء ذكر مجيئه بين الزمانين في خبرٍ آخر؛ ففي حديث أبي جهم: «كان إبراهيم يزور هاجر كل شهرٍ على =

تَرِكَتَه[1]، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ نحن في ضيقٍ وشدةٍ، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيِّر عَتَبَة بابِه.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخٌ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشُنا فأخبرته أنّا في جَهْدٍ وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك، قال ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحَقِي بأهلك، فطلَّقَها وتزوَّج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسَعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامُكم؟ قالت اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه**[2]».

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُرِيه يُثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخٌ حسن الهيئة -وأَثنتْ

= البراق يغدو غدوة فيأتي مكة، ثم يرجع فيقيل في منزله بالشام»، وروى الفاكهي من حديث علي بإسناد حسن نحوه، وأن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه على البراق؛ فعلى هذا فقوله: «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل»: أي بعد مجيئه قبل ذلك مِرارًا). فتح الباري (٦/ ٤٠٤).

(١) أي يتفقد حال من تركه.

(٢) يعني: إلا شكا بطنه.

عليه- فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمسكَك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبري نَبْله تحت دوحةٍ قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعَا كما يصنع الوالدُ بالولد والولدُ بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتُعينُني؟ قال: وأُعينُك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا، وأشار إلى أَكَمةٍ مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رَفَعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)[1].

بُني هذا البيت ليكون مثابةً للناس يَحُجُّون إليه ويعتمرون وقيامًا للناس تقوم به حياتهم وقبلةً للمسلمين. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، قال ابن كثير في تفسيره: (هذا فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش، في البقعة التي أُسِّست من أول يوم

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٣٦٤).

على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له؛ فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه وسلَّمه له وأذن له في بنائه،... ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾: أي ابنِه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾: قال قتادة ومجاهدٌ: من الشرك ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾: أي اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروفٌ، وهو أخص العبادات عند البيت؛ فإنه لا يُفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقُرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت؛ فالطواف عنده، والصلاة إليه).

وقال القرطبي في تفسيره: (﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ هي مخاطبةٌ لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في قول الجمهور، وقرأ عكرمة: «أن لا يُشرَك» بالياء... بمعنى لئلا يشرك، وفي الآية طعنٌ على من أشرك من قُطّان البيت، أي: هذا كان الشرط على أبيكم فمَن بعده، وأنتم لم تَفُوا بل أشركتم...، وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج، والجمهور على أن ذلك لإبراهيم، وهو الأصح. وتطهير البيت عامٌّ في الكفر والبدع، وجميع الأنجاس والدماء...، وقيل: المعنى نَزِّه بيتي عن أن يعبد فيه صنمٌ، وهذا أمرٌ بإظهار التوحيد فيه،... والقائمون هم المصلون، وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود).

فللتوحيد ولأهله بُني هذا البيت ومن أجلهم طُهِّر من الشرك والبدع، وهؤلاء الطائفون والراكعون والساجدون هم الذين من أجلهم أُقيم هذا البيت ولم يُبن لمن يشركون بالله تعالى في عبادته وحُكمه.

أمر الله جَلَّوَعَلَا إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ببناء بيته المحرّم، فامتثلا أمره وأحسنا البناء أيما إحسان، ومع ذلك كانا يسألان الله تعالى قبول العمل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فالمسلم وإن أحسن العمل فإنه يخاف أن لا يقبل منه.

وقال إبراهيم الخليل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وهو الموحد أبو الموحدين: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، فهل يأمن أحدٌ على نفسه من الشرك الأكبر بعد إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؟!، بل ينبغي للمسلم الحذرُ الشديد كذلك من الشرك الأصغر الذي هو أخفى في هذه الأمة من دبيب النمل؛ قال أبو موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: خطَبَنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذات يوم فقال: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أَخفَى من دبيب النمل»، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نَتّقِيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟، قال: «قولوا: اللهمّ إنّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم»[1].

الدروس والعبر:

١- من صفات الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ وأتباعهم التسليم المطلق لأمر الله تعالى؛ فإبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع شفقته ورحمته يترك امرأته وطفلها في أرض موحشة لا ماء فيها ولا شجر استجابةً لله تعالى وطاعةً له.

٢- النفس تصقلها الشدائد وتخرج أفضل ما فيها، فنزول البلاء بالمؤمن لا يعني أن الله أراد تعذيبه، بل البلاء من رحمة الله بعباده المؤمنين.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٢/ ٣٨٤).

٣- ربَّى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أهله وذريته على الطاعة والتسليم الكامل لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

٤- في قول هاجر عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: «إذن لا يضيعنا» دليل على قوة إيمانها بالله تعالى وعظيم توكلها عليه عَزَّوَجَلَّ.

٥- سؤال العبد ربه وإظهار الافتقار إليه وتضرعه في كل حال هو العبودية فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما فعل ما أمره ربه من ترك ذريته في ذلك المكان سأل الله لهم الصلاح وحسن الحال.

٦- من توكل على الله وفوّض أمره إليه لا يضيع وإن اشتد عليه الكرب؛ فهذه أم إسماعيل لما نفد طعامها وماؤها أرسل الله إليها غوثًا وأجرى لها ماء مباركًا طعام طعم وشفاء سقم لها ولغيرها إلى يوم القيامة.

٧- في سعي هاجر على تعبها وعطشها سبعَ مرات وهي بأرض موحشة أخذ المؤمن بالأسباب مع صدق التوكل على الله وعظيم رجاء الفرج.

٨- من استعصى عليه أمرٌ وحاوله مرات فسيأتيه الفرج غالبًا، ولينظر المسلم في حاله: كم يبذل من المحاولات لتحصيل أمر من أمور دينه أو دنياه.

٩- أمَر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابنه إسماعيل أن يطلق المرأة التي شكت إليه شدة العيش، فلا يليق بأصحاب الهمة العليّة أن يصحبوا أهل الحرص على الدنيا.

١٠- ينبغي للمسلم في طوافه استحضار توحيد الله وتعظيمه.

ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ

بارك الله سبحانه في ذرية إسماعيل فكثروا وصاروا قبائل وانتشروا في جزيرة العرب، وقد كانوا على دين أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ زمنًا طويلًا، ثم بدأ النقص فيهم وفشا الجهل حتى دخلت عليهم عبادة الأصنام، وكان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى جزيرة العرب عمرو بن لُحَيّ الخزاعي.

عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أول من سيَّب السوائب وعبّد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامرٍ، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار**»[(١)].

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رأيت عمرو بن عامر بن لحيّ الخزاعي يجر قُصْبَه في النار، وكان أول من سيب السوائب**»[(٢)].

ويؤخذ من قصة عمرو بن لحي حين ذهب إلى الشام وجاء بالأصنام إلى مكة عظم ضرر مجاورة الكفار وخطر مخالطتهم وزيارتهم في بلدانهم لغير غرضٍ صحيح وسوءُ مآل كسر الحاجز الذي وضعه الشرع بين المسلم والكافر؛ فالشر دركات.

عن أبي رجاءٍ العطاردي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوةً

(١) أخرجه الإمام أحمد (٧/ ٢٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٥٢١).

من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجبٍ قلنا: مُنصِل الأسنة، فلا ندع رمحًا فيه حديدةٌ ولا سهمًا فيه حديدةٌ إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب»، وقال: «كنت يوم بعث النبي ﷺ غلامًا أرعى الإبل على أهلي، فلما سمعنا بخروجه فررنا إلى النار إلى مسيلمة الكذاب»[(١)].

وقد عبد قبائل من العرب الشمس والقمر والملائكة والجن والكواكب، ومنهم من عبد بعض من يُنسب إلى الصلاح، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ قال: «كان اللات رجلًا يَلُتّ سويق الحاجّ»[(٢)]. ومن الناس من يتخذ هواه إلهًا، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

وكانت العرب تقول إن عبادتها للأصنام عبادة لله وتقرب إليه بها، وهم على طرقٍ مختلفة، فمنهم من يقول: هم شفعاؤنا عند الله فاتخذناها لتقربنا إلى الله، وفرقة قالت: إن للملائكة عند الله جاهًا ومنزلةً فاتخذنا أصنامًا على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله، وفرقةٌ أخرى زعمت أن على كل صنمٍ شيطانًا موكَّلًا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حاجته بأمر الله، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وقال عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وفي هذا أن سلامة المقصد لا تنجي صاحبها مع فساد العمل؛ ذلك أن مقصود هؤلاء التقرب إلى الله تعالى ومع ذلك لم ينفعهم.

(١) أخرجه البخاري (ح ٤٣٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٤٨٥٩).

عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي الحصين: «**كم تعبد اليوم إلهًا؟**» قال أبي: سبعة، ستة في الأرض وواحدًا في السماء، قال: «**فأيهم تعدّ لرغبتك ورهبتك؟**» قال: الذي في السماء، قال: «**يا حصين: أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك**»، قال: فلما أسلم حصينٌ قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي**»[1]، وكانوا عند الشدائد يَنسَون آلهتهم ويتخلَّون عنها كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

(١) أخرجه الترمذي (ح٣٤٨٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٧٤).

بقايا شريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند العرب

وقد بقيت في العرب بقايا من سنن إبراهيم وشريعته، ومن ذلك خصال الفطرة كالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان، وكانوا يغتسلون للجنابة، ويغسلون موتاهم ويكفنونهم، وكانوا يحجون البيت يطوفون به ويسعون بين الصفا والمروة ويمسحون الحجَر، ويلبون إلا أنهم يشركون في تلبيتهم يقولون: (لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك)، ويقفون المواقف، ويعظمون الأشهر الحرم، وعملوا بالقَسامة، واجتنب بعضهم الخمر في الجاهلية، وكانوا يغلظون على النساء أشد التغليظ في شرب الخمر!

وهم مع إقرارهم بالله وبعظمته وبتدبيره للأمور وأنه الخالق الرازق المحيي المميت وأن جميع الخلق تحت قهره وتصرفه قد اتَّخذوا من دون الله وسائط يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ

قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾.

فهم بذلك يشهدون أن الله هو الخالق الرازق المدبِّر وأن جميع السماوات ومن فيهن والأرَضين ومن فيهن تحت قهره، ولم يخرجهم ذلك من الكفر بإجماع المسلمين لكونهم يشركون بالله تعالى ويدعون معه غيره وينكرون قدرته على البعث ويكذبون رسله.

تلك صور من حياة أهل الجاهلية، وقد جاء في الحديث الذي رواه عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذات يومٍ في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب...»[1].

فالحديث يشير إلى انحراف الناس عن الشريعة ونبذها وراءهم ظهريًّا واختراع أنظمةٍ وقوانين من عند أنفسهم اتباعًا للشيطان، فحرموا ما أحلّ الله لهم وأحلوا ما حرَّم عليهم، وهذا ردٌّ على ما شرعوه من السوائب والوصيلة والحامي والبحيرة.

كما يوضح الانحراف عن التوحيد والردة عن الدين، وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وأمرَتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا،

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٨٦٥).

كما يشير إلى الفساد العظيم الذي غطّى وجه الأرض مما استحق الناس جميعًا به مقت الله إلا بقايا من أهل الكتاب، وأصبح البشر بحاجة شديدة إلى منقذٍ لهم من الضلالة إلى الهدى ومن ظلمة الشرك إلى نور التوحيد والإيمان ومن الشقاء إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

في هـذا الحـال المظلم والـزمـان المدلهم بالشرك بُعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال أحمد شوقي:

أتيتَ والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنمٍ قـد هـام في صنم

والأرض مملوءةٌ جَـوْرًا مسخَّرةٌ ... لكل طاغيةٍ في الخـلـق محتكِم

مسيطر الفرس يَبغي في رعيته ... وقيصر الـروم من كِـبْرٍ أصـمُّ عم

نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، وعدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»**[(٢)].

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٢٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٥٥٧).

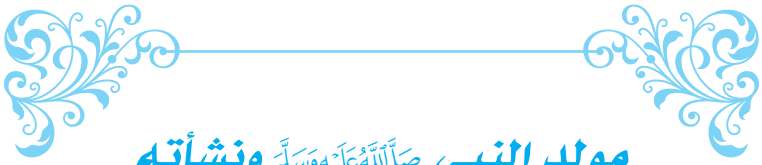

مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونشأته

كانت ولادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عام الفيل، وقد ذكر ابن إسحاق أنها كانت في الثاني عشر من ربيع الأول[(١)]، وقيل غير ذلك[(٢)]، وكانت يوم الاثنين كما ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سئل عن صيام يوم الاثنين قال: «ذاك يومٌ وُلدت فيه»[(٣)]. ومات والده وهو حَمْلٌ في بطن أمه.

وفي الصحيحين[(٤)] أن ثويبة مولاة أبي لهب أرضعته، كما أرضعته أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد أعتقها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد ما كَبِر.

أما رضاعه من حليمة السعدية في بني سعد فقد جاء عند ابن إسحاق، تقول حليمة لما أخذتْه من أمه: «فلما وضعتُه في حِجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارِفنا تلك فإذا إنها لحافلٌ، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رِيًّا وشِبَعًا، فبتنا بخير ليلة... إلى أن قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٣).

(٢) انظر: المواهب اللدنية للقسطلاني (١/ ٢٥)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٦٠)، والمعيار المعرب (٧/ ١٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (ح ١١٦٢).

(٤) البخاري (ح ٥١٠١)، ومسلم (ح ١٤٤٩).

أجدبَ منها فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شِباعًا لبنًا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسانٌ قطرة لبن ولا يجدها في ضرع... فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير»[1].

فأنزل الله عليهم البركة في أنفسهم وأموالهم لعنايتهم بصفيِّه وحبيبه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإرضاعهم له، وهذه بركةٌ أصابت هؤلاء قبل المبعث جزاء ما قدموه، ويحصل لمن آمن به واتبعه من البركة بقدر اتباعه ويقينه.

ويؤخذ من هذه القصة أن من الحزم اختيارَ البيئة الصالحة للرضاعة والنشأة الأولى للطفل؛ فإن لذلك أثرًا حسنًا في طباعه وأخلاقه.

(١) الروض الأنف (٢/ ١٤٦-١٤٧).

حفظ الله عَزَّوَجَلَّ للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صغـــره

في بني سعد وقعت حادثة عظيمة، فقد شُقَّ صدر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأُخرج منه حظ الشيطان. روى ابن إسحاق أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نفسه فقال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بَهمٍ لنا أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ معهما طستٌ من ذهبٍ مملوءٍ ثلجًا، فأضجعاني فشقَّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقةً سوداء فألقياها، ثم غَسَلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رَدّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرةٍ من أمته، فوزنني بعشرةٍ فوزنتُهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائةٍ فوزنتهم، ثم قال: زنه بألفٍ من أمته، فوزنني بألفٍ فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوَزَنَهم»[1].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشَقّ عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقةً فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٧٦).

ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعَون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو مُنتقَع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المِخْيَط في صدره[1].

فلما حصل هذا خافت عليه مرضعته حليمة فأرجعته إلى أمه.

(١) أخرجه مسلم (ح ١٦٢).

كفالته ﷺ بعد وفاة والدته

من عناية أمه به ﷺ أنها خرجت به إلى أخواله في المدينة تُزيره إياهم، والمراد بهم أخوال جده؛ فإن أم عبد المطلب من بني النجار واسمها سلمى.

روى ابنُ سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار تزورهم به ومعه أم أيمن رضي الله تعالى عنها تحضُنُه، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة، فأقامت به عندهم شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يذكر أمورًا كانت في مُقامه ذلك، ولما نظر أُطم بني عدي بن النجار عرفه فقال: كنت أُلاعب أنيسة جاريةً من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع الغلمان من أخوالي نُطير طائرًا كان يقع عليه[1].

وقد ماتت أمه بالأبواء بين مكة والمدينة بعد زيارة أخواله وعمره ست سنوات، فكفله جده عبد المطلب فأحسن كفالته.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له،

(١) طبقات ابن سعد (١/ ١١٦)، سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٢٠).

فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلامٌ جَفْرٌ حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. ثم مات جده بعد سنتين فأوصى به إلى عمه أبي طالب، فكفله عمه وحنّ عليه ورعاه[1].

قال الواقدي: قام أبو طالب من سنة ثمانٍ من مولد رسول الله ﷺ إلى السنة العاشرة من النبوة -ثلاثًا وأربعين سنة- يحوطه ويقوم بأمره ويذُبّ عنه ويلطف به.

وقد شبّ رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في رعاية الله وحفظه له متنزِّهًا عن أمور الجاهلية وعاداتها السيئة، فكان أفضل قومه مروءةً وأحسنهم خلقًا وأكرمهم مخالطة وأعظمهم حلمًا وأمانة وأصدقهم حديثًا وأبعدهم من الفحش والأذى، ما رؤي مُلاحيًا ولا ماريًا أحدًا، حتى سماه قومه الأمين لِما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[2].

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٠٦).
(٢) الروض الأنف (٢/ ٢١٩)، وسبل الهدى والرشاد (٢/ ١٤٧).

إرهاصات النبـوة

وقعت حوادث غريبة قبيل بعثة النبي ﷺ كانت إرهاصات على قرب زمان مبعثه ﷺ منها:

تسليم الحَجَر:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»(١).

الرؤيا الصادقة:

وهي أنه ﷺ كان يرى الرؤيا فتقع كما رآها، روت عائشة رضي الله عنها أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

العزلة والتحنث:

لقد حُبّب إليه الخلوة، فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد كما في الصحيحين(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٢٧٧).

(٢) البخاري (ح ٣)، ومسلم (ح ١٦٠).

الدروس والعبر:

١- في تسليم الحجر على النبي ﷺ تهيئة له لتلقّي الوحي الإلهي.

٢- رؤيا الأنبياء وحي، وأما الرؤيا الصالحة من غيرهم فمبشِّرات، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا.

٣- في العزلة تصفية للنفس من أوضار مخالطة الناس وإعانة على التفكّر في حال النفس وفي ملكوت الله.

الوحي وتبليغ الرسالة

لم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجو بتعبده وتحنثه أن يُبعث نبيًّا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراءٍ فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فَجِئَه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، فرجع بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: «زملوني زملوني»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع،

فقال لخديجة -وأخبرها الخبر-: «لقد خشيت على نفسي»[1]، فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ وتَكسِب المعدومَ وتَقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءًا قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[2] الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَمخرجيَّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومك أنصرْك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشَب ورقة أن توفي، وفَتَر الوحي».

وكان ذلك في شهر رمضان المبارك[3]، وقد جاور في الغار تلك السنة شهرًا[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أُنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنةً، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنةً، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ»[5].

(١) أي من الموت أو المرض أو دوامه.
(٢) الناموس صاحب سر الخير، والجاسوس صاحب سر الشر.
(٣) الروض الأنف (٢/ ٣٨١).
(٤) أخرجه مسلم (ح ١٦٠).
(٥) أخرجه البخاري (ح ٣٨٥١).

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعالج من التنزيل شدةً[١]، إذا نزل عليه الوحي كَرَبَ لذلك وتربَّد وجهه[٢] وغمَّض عينيه[٣]، وكان يأتيه في اليوم الشاتي فيتفصّد جبينه عرقًا[٤]، ولما نزل الوحي مرةً على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفخذه على فخذ زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥] كادت فخذ زيد أن تُرَضّ.

وأمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة الناس وتبليغ ما أنزل إليه، فبدأ بدعوة من يثق به سرًّا، ومكث على ذلك ثلاث سنين؛ إذ لم يأمره الله تعالى بالجهر بالدعوة والصدع بها.

وكان المسلمون يكتمون إسلامهم، ويخفونه عن أقوامهم وأهليهم، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبلُ»[٦].

الدروس والعبر:

١- ما أعظم قوة تحمل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يدخل عليه رجل غريبٌ ثم يضمه إليه ويقول اقرأ! هذا في العادة يُدخِل من الخوف على النفس ما قد يُذهب العقل.

٢- من رجاحة عقل أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها استدلت على ما أقسمت عليه بأمر معهود بالتجرِبة؛ فقد وصفت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصول

(١) أخرجه البخاري (ح ٥)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٣٣٤)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) مسند الشاشي (٣/ ٢٢٣).
(٤) أخرجه البخاري (ح ٢)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٥) أخرجه البخاري (ح ٢٨٣٢)، عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٦) أخرجه البخاري (ح ٦٨٦٥).

مكارم الأخلاق؛ لأن الإحسان يكون إلى الأقارب وإلى غيرهم، ويكون بالبدن وبالمال، ويكون على من يستقل بأمره وعلى من لا يستقل، وذلك كله مجموعٌ فيما وصفته به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستدلالها بذلك دليلٌ على أنها على معرفة بسنن الله الكونية وأن الجزاء من جنس العمل.

٣- لعل من حِكم البدء بالدعوة سرًّا التخفيف على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كي لا يواجه الأعداء وحده في ابتداء الأمر.

٤- ربى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مدة الدعوة السرية ممن آمن به واتبعه أنصارًا للدين صاروا دعائم الإسلام.

٥- الإسرار بالدعوة أمر اقتضاه الحال أول الدعوة، فالإسرار بها بعد جهر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها مخالف لما استقر من الدين، فلا يلجأ إليه إلا عند الحاجة.

٦- تأمل سير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم مما يثبت المصلح ويعينه على الصبر على الإصلاح ومدافعة الفساد.

السابقون إلى الإسلام

أول من آمن برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتبعه فيما جاء به من عند الله أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن النساء خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومن الصبيان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن الموالي زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن إسحاق في وصف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وكان رجلًا مؤلَفًا لقومه محبَّبًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خيرٍ وشر، وكان رجلًا تاجرًا ذا خُلق حسن ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألَفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته...»[(١)].

وكان لهذه الخلال الحميدة أثر في دعوة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من يثق به إلى الإسلام، فأسلم على يديه في الأيام الأولى طليعة أهل الإسلام وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكلهم من العشرة المبشرين بالجنة.

وكان أهل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أوائل من دخل في الإسلام، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لم أعقل أبويَّ إلا وهما يَدينان الدِّين[(٢)].

(١) الروض الأنف (٣/ ١١).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٤٧٦).

وممن أسلم على يد أبي بكر أيضًا مصعب بن عمير وعياش بن أبي ربيعة والأرقم بن أبي الأرقم بن عبد مناف بن أسد وعثمان بن مظعون الجُمَحيّ رضي الله عنهم أجمعين.

الدروس والعبر:

١- يُظهر إسلام هؤلاء السابقين بركة مجالسة الأخيار وصحبتهم؛ فخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حازت قَصَبَ السبق إلى الإسلام لقربها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبق الناس لأنه كان أخصّ الناس بصحبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلي وزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نالا هذا السبق لكونهما في بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحت رعايته.

٢- يَظهر من قصة الذين أسلموا على يد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثر الأخلاق الحسنة في تألُّف الناس، وخيرُ الناس من يألف ويُؤلَف، أما الجفاء والغلظة فمن عوائق الإصلاح.

٣- الصالحون من أصحاب الجاه والمال لهم أثرٌ كبير في كسب أنصارٍ للدعوة.

٤- استمرار أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الاجتهاد في إقامة هذا الدين من أول يوم أسلم فيه حتى انتقل إلى جوار ربه يُوضح صورة المؤمن الذي لا يَقِرّ له قرار ولا يهدأ له بال حتى يحقق ما آمن به، ولا ينطلق انطلاقة مؤقتة سرعان ما تضعف أو تزول.

٥- يلاحظ أن الإسلام انتشر في جميع بطون قريش ولم يخصّ بعضًا دون بعض؛ فالإسلام لا يَخَصّ به أحد دون أحد بل هو رحمة الله للعالمين.

٦- دخول مختلف العشائر في الإسلام في أوّل الدعوة نفى عن الإسلام تهمة كونه دعوة لتحقيق مصالح العشيرة التي ينتمي إليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة.

٧- لقد ظل السابقون الأولون دائمًا مقدَّمين في السياسة والحكم وفي الحرب والسلم أئمةً في العلم والفقه والفتيا، فلم يكن عملهم حملة حماس ثم خَبَت، وإنما هو إيمانٌ عميقٌ يحرك النفوس والعقول والعواطف للعمل لهذا الدين، لم يُعرَف عنهم ركون إلى الراحة أو الترف منذ أسلموا حتى لَقُوا الله تعالى رضي الله عنهم أجمعين.

٨- لقد كان المؤمنون الأولون غرباء بين أهل الشرك والفساد من أهل الجاهلية، ولكن غربتهم ليست غربة ضعف وذل ورضًا بالدون، فقد ربوا في الإسلام على العزة والكرامة والاستعلاء على الكافرين، وهم على علم بوجوب غزو الشرك وعزم على تقويض أركانه، يصاحب ذلك همة وثقة تامة بنصر الله لهذا الدين والتمكين له في الأرض، فكانوا يتسابقون للمشاركة في رفع راية الإسلام.

الجهر بالدعـــوة

أرسل الله تعالى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيرًا ونذيرًا لإخراج من شاء الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد نزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بمكة والمشركون يكيدون له قولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، فدعوة الإسلام ليست خاصةً بقريش ولا بالعرب، وإنما هي رحمة من الله لجميع الخلق، فلا بد من أن يجهر أتباعها بها ويبذلوا وسعهم في تبليغها وإقامة أمرها وتحمُّل الأعباء في ذلك.

وبعد ثلاث سنوات من دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام سرًّا أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين ويصدع بالدعوة؛ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا!؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتُكم أنّ خيلًا تخرج من سَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جرَّبْنا عليك كذبًا، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد. قال أبو لهب: تبًّا لك، ما جمعتنا إلا لهذا!؟، ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[1]. وفي رواية: قالوا: نعم، ما جرَّبْنا عليك إلا صدقًا[2].

(١) أخرجه البخاري (ح ٤٩٧١)، ومسلم (ح ٢٠٨).
(٢) صحيح البخاري (ح ٤٧٧٠).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أنزل الله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال: «يا معشر قريش -أو كلمةً نحوها- اشتَرُوا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا»[1].

الدروس والعبر:

١- البدء بدعوة الأقربين أولى من البدء بدعوة غيرهم؛ لما في ذلك من صلة الرحم.

٢- بيَّن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أول يوم جهر فيه بدعوته أن النسب أو المال أو الجاه لا يغني من الله شيئًا، وإنما المعوَّل عليه الإيمان والعمل الصالح، فقد أُعطي أبو لهب جمالَ الوجه ورُزق الثروة وكان له الشرف والجاه كما كانت له القرابة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو وحده من كفار قريش الذي ذكر باسمه في القرآن في مَعرِض المقت والوعيد، فلعل ذلك لبيان أن هذه المزايا لا تُغني عن صاحبها من مقت الله وعذابه شيئًا إذا خالف أمره.

٣- أعرض أكثر المشركين بعد الجهر بالدعوة وكذّبوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآذوه وسخروا منه ومن دعوته، فصبر على ذلك كله وثبت وأعرض

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٧٥٣)، ومسلم (ح ٢٠٦).

عن جهلهم، فظهر الإسلام وعلا أمره، فينبغي أن لا يَثني عزمَ المصلح ما يراه من صدود الناس في أول الأمر.

٤- الجهر بالدعوة بعد الإسرار نقلٌ لها من مكان مغلَقٍ إلى ميدان رَحْب، وقد يساعد في إظهار الدعوة أعداؤها وذلك بالتحذير منها، فليس كل الناس يستجيبون لدعاية المشركين، فقد أسلم بعض أفراد القبائل بسبب ما سمعوه من سبٍّ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذمّ لدعوته فحملهم ذلك على التبيّن وطلب معرفة الحقيقة فدخلوا في دين الله تعالى.

٥- قد لا يكون للدعوة في بَدئها وسائل إعلام كافية للتبليغ، ولكن أعداءها قد يكونون وسائل إعلام لها بما يثيرونه من شبهات.

مقاومة الكفار لدين الإسلام

أقلقت دعوة التوحيد المشركين ورأوا فيها تهديدًا لوثنيتهم ولمكانتهم، فانتصبوا لعداوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقاومة دعوته وحرصوا أشد الحرص على إلحاق الأذى به وبأصحابه، فبلغ ببعضهم السفه والجرأة إلى أن بصق في وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووضع آخر على ظهره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلا الجَزُور وهو ساجد، واستهزأوا به ووصفوه بالجنون والكِهانة والسحر، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾، وأصاب أصحابه صنوف من الأذى فأصبحوا يرون بلالًا يُجرّ في الشوارع، وياسرًا وسمية يعذَّبان حتى الموت، وقد كانوا وهم في الجاهلية يَأنَفُون الذُّلّ ويأبَون الضيم ويأخذون بالثأر، حتى إن من العرب من كان يثأر لقتل جمل كما في حرب البسوس أو إذلال فرَس كما في حرب داحس والغبراء، ولما دخلوا في الإسلام زادهم أنفة وعزة فأرادوا الانتقامَ والأخذ بالثأر، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالصبر على شدة ما ينالهم من الأذى والضرر ونهاهم عن القتال حين شكَوْا إليه، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عبد الرحمن ابن عوف وأصحابًا له أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة. فقال: «**إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا**

القوم»[1]، وعن خَبّاب بن الأرتّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مضطجعٌ تحت شجرةٍ واضعٌ يده تحت رأسه، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله على هؤلاء القوم الذين قد خشينا أن يردُّونا عن ديننا، فصرف وجهه عني، فتحوّلت إليه، فصرف وجهه عني، ثلاث مرات، كل ذلك أقول له فيصرف وجهه عني، فجلس في الثالثة، فقال: «أيها الناس، اتقوا الله واصبروا؛ فوالله إن كان الرجل من المؤمنين قبلكم لَيُوضع المنشار على رأسه فيُشقّ باثنين وما يرتد عن دينه، اتقوا الله؛ فإن الله فاتحٌ لكم وصانع»[2].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متوسِّدٌ بردةً وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدّةً فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقَعَد وهو محمرٌّ وجهُه فقال: «لقد كان مَن قبلكم ليُمشط بمِشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ أو عصبٍ ما يَصرفُه ذلك عن دينه، ويُوضَع المِنشار على مَفرِق رأسه فيشقّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه!، ولَيُتمَّنّ الله هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»[3].

وكانوا يؤمرون بالاستعانة بالصبر والصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٧٦).
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٣)، والطبراني في الكبير (٤/ ٦٥).
(٣) أخرجه البخاري (ح ٣٨٥٢).

وقد كانت بغية الشيطان إشعال الحرب قبل تهيُّؤ المسلمين، يشهد لذلك قصة الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي رواها عروة بن الزبير، قال: إن أول رجل سَلّ سيفه في الله الزبير بن العوام، نفخةً نفخها الشيطان: أُخِذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وفي رواية: فأُخبر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُتل- فخرج الزبير يشقّ الناس بسيفه والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعلى مكة، قال: «ما لك يا زبير؟» قال: أُخبرت أنك أخذت، قال: فصلى عليه، ودعا له ولسيفه[1].

ولما ازداد أذى الكفار أذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة وقال لهم: «إن بها ملِكًا لا يُظلَم عنده أحد»[2]، فهاجر إليها منهم نحوٌ من الثمانين.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٢٤١)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٧٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٨٩).

(٢) الروض الأنف (٣/ ٢٠٣).

حصار الشِّعب

لما جعل الإسلام يفشو في القبائل اجتمع كفار مكة وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، وكتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم. فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وظاهر أبو لهب قريشًا فخرج إليها، وحاصروهم في شعب أبي طالب ثلاث سنوات ومنعوا دخول الطعام إليهم حتى اضطُرُّوا إلى أكل ورق الشجر.

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش، فاتعدوا خطم الحجون ليلًا بأعلى مكة، فتعاقدوا نقضها، فقال أحدهم وهو زهير بن أبي أمية المخزومي: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فقال أبو جهل: كذبت والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب

فيها. فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تشوور فيه بغير هذا المكان. فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرَضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم».

وبعد فك الحصار توفي أبو طالب عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان يذب عنه ويحوطه ويحميه، وخلص المشركون إلى أذى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لم يكونوا يصنعونه في حياة أبي طالب، وتوفيت زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت تسري عنه همومه وتهون عليه تعبه، فسمي ذلك العام عام الحزن.

الدروس والعبر:

١. التجويع سلاحٌ يستخدمه الكفار، والإيمان أكبر في نفوس المؤمنين الصادقين من أن يتغير من أجل المصالح الدنيوية كالطعام والشراب ونحوها.
٢. الأخلاق التي لا تقومُ على عقيدةٍ راسخة تضمحلُّ ويُتَنكَّرُ لها إذا تعارضت مع المصالح المتوهمة، فمشركو قريش الذين يتفاخرون بإطعام الحجيج وسقايتهم يضربون حصار التجويع على أفضل بطن من بطونها.
٣. فشِلَت خُطّة الحصار بسبب صبر المحاصرين وتعاضدهم، وهذا يُبَيّن فائدة ترابط الأُسَر والقبائل وتعاونها.
٤. يُظهِر هذا الحديث عظيم مقام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفوس أهله وقبيلته، فمع مخالفة بعضهم له في الدين تحمَّلوا من أجله الأذى العظيم والحصارَ الطويل، فينبغي لطالب العلم الحرص على تحسين الصلة بأهله وقبيلته خاصةً وبالناس عامّة.

الإسراء والمعراج

عن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حديث الإسراء والمعراج: «فأُتيت بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فشُقّ من النحر إلى مراقّ البطن فغُسل بماء زمزم، ثم ملئ حكمة وإيمانًا»(١).

وروى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُتيتُ بالبُراق وهو دابةٌ أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير». ثم عرج به إلى السموات فلقي فيها الأنبياء، ولقي موسى في السماء السادسة، «قال: ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذُهب

(١) أخرجه مسلم (ح ١٦٤).

بي إلى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفِيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتُهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا ربّ، خفف على أمتي، فحَطَّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلواتٍ كل يوم وليلة لكل صلاةٍ عشرٌ فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»[1].

ولما أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركين بالإسراء والمعراج كذبوه واستهزأوا به، وذهب الناس إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة، قال: فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه، فقالوا بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس، فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما

(١) أخرجه مسلم (ح ١٦٢).

يعجبكم من ذلك! فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أعجب مما تعجبون منه[1].

الدروس والعبر:

١- لقد شق صدر رسول الله ﷺ مرتين، المرة الأولى في طفولته لاستخراج العلقة وحظ الشيطان منه، والمرة الثانية عند الإسراء والمعراج لتهيئته ﷺ للتلقي الحاصل في هذه الليلة العظيمة بعدما أُفرغ في صدره الإيمان والحكمة، وفي هذا بيان لكمال عناية الله بنبيه ﷺ واختصاصه بالمقامات العلية.

٢- الإسراء بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس ثم العروج منه إلى السماوات يوضح عظمة منزلة بيت المقدس في الإسلام وأن أولى الناس به الأنبياء والصالحون.

٣- صلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء فيها دلالة على علو منزلته وكمال فضله وأن رسالته ناسخة لما قبلها.

٤- فَرْض الصلاة في السماء السابعة دون سائر أركان الإسلام يدل على عظيم منزلتها في الشرع، فهي الركن الثاني بعد الشهادتين.

٥- مما يستفاد من مراجعة موسى عليه السلام لنبينا ﷺ استحسان بذل النصيحة لمن ينتفع بها وإن لم يطلبها.

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٩٩).

العرض على القبائل

استمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، لا يصرفه عن ذلك صارفٌ ولا يرده عن ذلك راد ولا يصده عنه صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حُرّ وعبد وضعيف وقوي وغني وفقير، جميع الخلق عنده في ذلك شرَع سواء[1].

وكان أتباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُزّاعًا من القبائل لا قبيلة تحميهم، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرتاد للدعوة موطنًا تحتمي به، وكان يأمر من اتبعه من القبائل خارج مكة أن يَبقَوا في قبائلهم ويستخْفُوا حتى يَظهر.

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض نفسه على الناس في الموقف، فقال: «**هل من رجلٍ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي** عَزَّوَجَلَّ...»[2].

وعن ربيعة بن عِبادٍ الديلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا،

(١) البداية والنهاية (٣/ ٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (ح ٤٧٣٤)، والترمذي (ح ٢٩٢٥).

وهو لا يسكت يقول: «أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، إلا أن وراءه رجلًا أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئٌ كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب. قال أبو الزناد: فقلت لربيعة بن عباد: إنك كنت يومئذ صغيرًا؟ قال: لا والله إني يومئذٍ لأَعقِل[1].

وعن طارق بن عبد الله المحاربي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرتين، رأيته بسوق ذي المجاز وأنا في بِياعةٍ لي، فمر وعليه حلة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: «أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعُرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا؛ فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا غلام من بني عبد المطلب، فقلت: من هذا الذي يرميه بالحجارة؟ فقيل: عمه عبد العزى أبو لهب[2].

وعن شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، قال: وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم؛ فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى، قال: وما يلتفت إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥/ ٤٠٥).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٠٠).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣٨/ ٢٤٦).

الدروس والعبر:

١- بذل المشركون غاية وسعهم في الصد عن دين الله ومحاربة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يَثن ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوته، بل صدع بها في الأندية والمحافل والأسواق.

٢- على العالم والمصلح توطين نفسه على تحمل أذى الناس؛ فإنه سينكر كثيرًا مما ألفه الناس من الفساد.

٣- لقاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقبائل في المواسم لم يُدخل أكثرهم في الإسلام في حينه لكنه أثار التساؤل عن صحة ما هم عليه، فتحدثوا بما وجدوه في سفرهم ومن لاقَوْا من الناس وماذا دار بينهم من الأحاديث، فأصبحوا بذلك أداة إعلام لنقل خبر الدعوة لأقوامهم.

٤- كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغتنم الفرص للدعوة لدين الله عَزَّوَجَلَّ فيتحرى بها المواسم والأسواق، ويدأب في الدعوة دون يأس ولا ملل.

٥- من أكثر من تأذى منهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمه أبو لهب في زمنٍ كانت الحمية فيه للعشيرة متجذرة في النفوس، فقد كان يطارده أمام الناس، ويكذبه وينهى الناس عن طاعته، ويرميه بالحجارة فيُدمي عقبيه ويحثو التراب في وجهه، وضرر عداوة ذي الرحم أشد وأشق على النفس من ضرر عداوة غيره.

٦- لقد صبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على مشاق الدعوة وعوائقها وتبعاتها، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

٧- كان أول ما يعرضه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على القبائل كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»؛ لأنها أساس الإسلام.

بيعة العقبـة

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومَجَنّة وعكاظ ومنازلهم من منى: «من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة»، فلا يجد أحدًا ينصره ولا يؤويه، حتى إن الرجل ليرحل من مُضَر أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: «احذر غلام قريش، لا يفتنك»، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثَنا الله من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رهطٌ من المسلمين يظهرون الإسلام.

وبعثنا الله إليه، فائتمرنا واجتمعنا وقلنا: حتى متى نترك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطرد في جبال مكة ويخاف؟!، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدَنا بيعة العقبة، فقال له عمه العباس: يا ابن أخي، لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب! فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا قال: هؤلاء قومٌ لا نعرفهم، هؤلاء أحداثٌ! فقلنا: يا رسول الله، علامَ نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائمٍ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

قال: فقمنا نبايعه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو أصغر السبعين- إلا أنه قال: رويدًا يا أهل يثرب؛ فإنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتلُ خياركم وأن يعَضّكم السيف، فإما أنتم قومٌ تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه؛ فهو عذرٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ. فقالوا: يا أسعد أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، قال فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة[1].

الدروس والعبر:

١- كان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يؤذى ويحذَّر منه فصبر على دعوته عشر سنين، يغشى الناس في منازلهم وأسواقهم ولم ييأس حتى يسر الله له الأنصار فبايعوه؛ فلا ينبغي للداعي أن يثنيه الأذى عن الصبر ومواصلة الدعوة.

٢- بلغت دعاية المشركين الإعلامية للصد عن دين الله سبحانه مبلغًا عظيمًا بين قبائل العرب، حتى صار الناس يحذِّرون أقوامهم في سفرهم إلى مكة من لقاء الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «احذر غلام قريش، لا يفتنك».

٣- ينبغي أن يكون السعي في إيصال الحق إلى عموم الناس وكسر الحواجز التي ضربها الأعداء دونه من أعظم ما يَشغَل أتباع الأنبياء.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٢/ ٣٤٦-٣٤٨).

الهجرة إلى المدينة

بعد بيعة العقبة بدأت طلائع المهاجرين تتوجه إلى المدينة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابَتَين»، وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قِبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر بأرض الحبشة...[١].

قال البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وتجهز أبو بكر قِبل المدينة فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر -وهو الخَبَط- أربعة أشهر[٣].

وظل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتظر أمر ربه بالهجرة إلى المدينة، وقريش جاهدة في حربه والكيد له، حتى ائتمروا في دار الندوة على أن يأخذوا من

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٩٠٥).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٩٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (ح ٣٩٠٥).

كل قبيلة فتًى جَلْدًا فيعطوه سيفًا حادًّا فيقتلوا رسول الله ﷺ ليتفرق دمه بين القبائل.

قال ابن إسحاق: ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة، فحذِروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع على حربهم، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يَدينان الدين، ولم يمرَّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشية، قالت رضي الله عنها: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نَحْر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعًا في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمْر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أَخرِج مَن عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أُذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيّ هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ الجَهاز، وصنعنا لهما سُفرةً في جِراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمّيت ذات

النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكمَنَا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلامٌ شابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فيَدَّلج من عندهما بسحَر فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ، فلا يسمع أمرًا يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر مِنْحةً من غنم فيُرِيحها عليهما حين تذهب ساعةٌ من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ وهو لبنُ مِنحتهما ورَضِيفُهما، حتى يَنعِق بها عامر بن فهيرة بغَلَس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عَدي هاديًا خِرِّيتًا -والخريت الماهر بالهداية- قد غَمَسَ حِلفًا في آل العاص بن وائلٍ السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأَمِناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُبحَ ثلاثٍ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المُدْلِجيّ -وهو ابن أخي سُرَاقة بن مالك بن جُعشُم- أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ديةَ كلِّ واحد منهما، من قتله أو أسره.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في رَكْب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشأم، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياضٍ، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرّة فينتظرونه حتى يردّهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوا إلى بيوتهم أوفَى رجلٌ من يهود على أُطمٍ من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه فبصُر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه مُبَيِّضينِ يزول بهم السراب، فلم يملك اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك، فلبث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأَسّس المسجد الذي أُسّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

الدروس والعبر:

١- في قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين دلالةٌ على عناية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأهل بيته كما أن فيه دلالة على تقدم إسلامهم.

٢- في الحديث بيان لعظم منزلة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعاناته لأمر الدعوة منذ بزوغ فجرها؛ فقد كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يزوره كل يوم مرتين.

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٩٠٥، ٣٩٠٦)، وهو حديث الهجرة الطويل.

٣- عزم أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الخروج من مكة مهاجرًا وحده يظهر ما بلغه الأذى الذي كان يُلحقه كفار قريش بالمسلمين، فإذا كان هذا حال أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع شرفه وعظم منزلته في قريش ومنعته فكيف بغيره!

٤- أمر إقامة الدين هو الأصل عند المسلم، ولأجل هذا المعنى تجهَّز أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخروج مهاجرًا من مكة مع فضلها على سائر البلدان، فلا ينبغي للمسلم أن يركن إلى الذل والهوان، بل عليه أن يسعى جاهدًا في فك الحصار المضروب على دينه ودعوته حتى يتمكن من تحقيق عبوديته لله تعالى.

٥- سارع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى التهيؤ للهجرة بلا طلب من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد علف بعد ذِكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للهجرة راحلتين كانتا عنده؛ إذ مثل هذا من لوازمها فلا تحتاج إلى أمر، فينبغي للمصلح أن يكون فطنًا يبادر إلى ما ينبغي عمله.

٦- من الحزم مقابلة كيد الأعداء بما يبطله، فالمشركون يسعون للإيقاع بالدعوة والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجاهد للمضيّ بها لإقامة دين الله؛ فوضع الخطط الموصلة إلى تمكين الدين من التوكل على الله تعالى.

٧- مما يشق على النفس أن يُخرَج المرء من داره وهو يعلم أن لا استقرار له فيها بعد خروجه، فكيف إذا كانت هذه الدار هي البلد الأمين الحبيب إلى القلوب، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفًا على الحَزْوَرة

فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1].

٨- لقد ربى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهل بيته على الأمانة وحياطة الإسلام وحفظه، وكان واثقًا أتم الثقة بتربيته، ولذا قال للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أمره بإخراج مَن عنده: إنما هم أهلك يا رسول الله، وجاء في رواية: لا عين عليك؛ إنما هما ابنتاي.

٩- ينبغي للمسلم أن يرغب في مصاحبة أهل الخير ويفرح بها ولو في الشدائد، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستبشرًا: الصحابة يا رسول الله؟!

١٠- من الحكمة وحسن التدبير أن يُختار لكل عمل من يحسنه فيوكل إليه؛ فقد كان عبد الله بن أبي بكر للأخبار وعامر للّبن وأسماء وعائشة لتجهيز الطعام رضي الله عنهم أجمعين.

١١- لا تجوز الاستعانة بالمشركين إلا إذا أُمن شرهم ولم يكن لهم شوكة يخشى ضررها وعُرفوا بإتقان ما يُراد منهم ولم يوجد في المسلمين من يغني عنهم.

١٢- كانت السلطة والسلاح والرجال والأموال بيد الكفار ولم يستطيعوا أن يهتدوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهما في الغار! فقدرة الله فوق كل قدرة.

عناية الله أغنت عن مضاعفةٍ من الدروع وعن عالٍ من الأُطُمِ

(١) أخرجه الترمذي (ح ٣٩٢٥)، والإمام أحمد (٣١/ ١٢).

بناء مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس معه حتى بركت ناقته عند موضع مسجده وهو يصلي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين، وكان مِرْبدًا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبةً حتى ابتاعه منهما[1]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثم بناه مسجدًا، فعمل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرغِّب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لَئِن قَعَدنا والنبيُّ يعملُ ... لَذاك منا العمل المضللُ

وطفق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه، ويقول:

هذا الحِمال لا حمال خيبرْ ... هذا أبرُّ ربَّنا وأطهرْ

ويقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخِرهْ ... فارحم الأنصار والمهاجرهْ

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٩٠٥، ٣٩٠٦)، وهو حديث الهجرة الطويل.

وبُني مسجد رسول الله ﷺ وسُقف بالجريد وجعلت قبلته من اللبن، ويقال بل من حجارة منضودة بعضها على بعض، وجُعلت عُمُده من جذوع النخل، وكان أساسه من الحجارة قريبًا من ثلاثة أذرع والباقي من اللبن، وكان طوله مائة ذراع وعرضه كذلك فهو مربع، وجعل له ثلاثة أبواب.

الدروس والعبر:

١- بني المسجد لكل ما يحتاجه المسلمون، ومن ذلك:

أ - إقامة الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله.

ب - تعليم المسلمين.

ج - لقاء المسلمين واستقبال الوفود وعقد ألوية الجهاد في سبيل الله.

د- إيواء الفقراء وطلبة العلم.

٢- للمحافظة على مكانة المسجد نهى النبي ﷺ أن يبنى مسجد ضرارًا لتفريق المسلمين، أو يبنى على القبور، أو تتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

٣- من تعظيم المساجد الأمر بأخذ الزينة عندها، والنهي عما يؤذي المسلمين والملائكة كرائحة الثوم والبصل وما في معناهما.

٤- لما صرف المسلمون عن المقصد الذي بنيت له المساجد اشتغلوا بزخرفتها وأشكال بنائها، وقد «نهى رسول الله ﷺ أن يتباهى الناس في

المساجد»[1]، وأصبحت المساجد في كثير من البلدان لأداء الصلاة فقط ثم تغلق فلا يقام فيها حلقة علم وإقراء ولا مجلس ذكر ولا وعظ.

٥- من الجناية على الأمة إخراج التعليم من المساجد، وتعطيل منزلتها في الإسلام، وحرمان المسلمين من بركتها على علم المتعلم وسلوكه وقد ذكر الفيروزآبادي أن علماء ما وراء النهر لما بلغهم بناء المدارس ببغداد وغيرها أقاموا «مأتم العلم»[2].

(١) أخرجه ابن حبان (٤/ ٤٩٢)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٥).

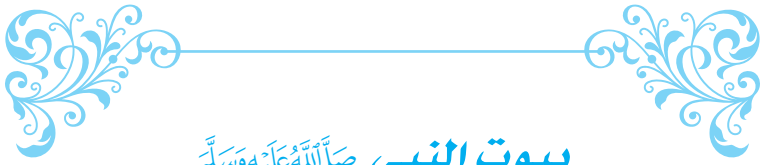

بيوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كانت بيوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعةً من جريد مطيَّن وسقفها جريد، وكانت حُجَره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكسيةً من شعر مربوطة في خشب عَرْعَر[١]، وفي تاريخ البخاري أن بابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرع بالأظافر: أي لا حلق له.

قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي[٢].

وعن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مُغشاة من خارج بمُسوح الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحوًا من ست أو سبع أذرع، وأحزر البيت الداخل عشر أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع نحو ذلك، ووقفت عند باب عائشة فإذا هو مستقبل المغرب[٣].

وأما الأثاث فهو قطيفة ولحاف ووسادة حشوُها ليف وسرير مرمول[٤] وجلود معلَّقة وقربة وصحفة صغيرة وصحفة كبيرة للأضياف وإناء للشرب ورَكْوة للغسل.

(١) نوع من الشجر.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (برقم ٤٥٠).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (برقم ٤٥١).
(٤) أي: منسوج وجهه بسعف النخل.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أَدَم، وحشوه من لِيف[1]، ووصف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فراش النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأثاثه فقال: «... دخلت عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراشٌ قد أثر الرمال بجنبه متكئٌ على وسادةٍ من أدمٍ حشوها ليف، فسلمت... ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يَرُدّ البصر غير أَهَبَة ثلاثة، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، وكان متكئًا فقال: «**أوَفي شكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عُجِّلتْ لهم طيِّباتهم في الحياة الدنيا**»، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي..»[2].

كان بيت النبوة يمثل السهولة في جمالها وعلوِّها، والزهدَ في قمته، والاكتفاءَ بالقليل وعدم التكلف مع القدرة والإمكان على الدنيا لو أرادها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تصف أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عيش النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلة: ما شبع آل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليالٍ تِباعًا حتى قُبض[3]. وقالت لعروة: ابنَ أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلّةٍ في شهرين وما أُوقِدت في أبيات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نار! فقلت: يا خالة، ما كان يُعِيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٤٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٤٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (ح ٥٤١٦).

ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا[1].

ويصف لنا خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنه عيش النبي ﷺ وما فيه من القلة، فيقول: إنه مشى إلى رسول الله ﷺ بخبز شعير وإهالةٍ سَنِخةٍ، ولقد رهن النبي ﷺ درعًا له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرًا لأهله، ولقد سمعته يقول: ما أمسى عند آل محمد ﷺ صاع بر ولا صاع حبٍّ وإن عنده لتسعَ نسوة[2].

بل إنه ليخرجه الجوع من بيته أحيانًا كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ ذات يومٍ أو ليلةٍ فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا**»، فقاموا معه فأتى رجلًا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعِذقٍ فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك والحلوب**»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شَبِعوا ورَوُوا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي**

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٥٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٢٠٦٩).

بيده لتُسألُنّ عن هذا النعيم يوم القيامة؛ أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[(١)].

هذا مع كرمه وجوده وسخائه حتى كان أجود بالخير من الريح المرسلة، ولو كانت عنده خزائن الأرض لجاد بها في ليلة، يقول أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنت أمشي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَرّة المدينة عشاءً استقبلنا أُحد فقال: يا أبا ذر ما أُحبّ أن أُحدًا لي ذهبًا يأتي علي ليلةٌ أو ثلاثٌ عندي منه دينارٌ إلا أَرصُده لدَين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، وهكذا، وهكذا، وأرانا بيده»[(٢)].

ولما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القدوة لهذه الأمة في حياته الخاصة والعامة وكان الذين ينقلون لنا حياته العامة آلافًا من أصحابه احتاج نقل سيرته وهديه في بيته إلى عددٍ من النساء؛ إذ إن المرأة الواحدة ربما تنسى أو قد ترى أن بعض الأمور من حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مهمٍّ أو أن الذي يَروي عنها ينسى، فتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع نسوة، وكنّ متباياناتٍ في أحوالهن حتى يتأتى الاقتداء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمنهن صاحبة الأولاد ومنهن الكبيرة ومنهن القريبة في النسب ومنهن البعيدة مع اختلافهن في الطبائع، وفي هذا درس عظيم للأمة في التعامل مع النساء على اختلاف حالاتهن وطبائعهن.

وقد نقلن كلهن حياته الخاصة، وأصبح المسلم يعرف عن حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته أكثر مما يعرف عن أبيه الساكن معه.

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٠٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٢٦٨).

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لما هاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى المدينة وقد تركوا ديارهم وأموالهم تنافس الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في إيواء إخوانهم المهاجرين، حتى اقترعوا على سكناهم، أخرج البخاري عن أم العلاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى فمرّضناه حتى توفي...[١].

بل طلبوا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَقسم بينهم وبين إخوانهم من المهاجرين نخيلهم؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبينهم النخل، قال: لا، فقالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في التمر، قالوا: سمعنا وأطعنا[٢].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا مَعاقلهم وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين[٣].

ثم إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخى بين المهاجرين والأنصار، فكانت هذه الآصِرة أقوى من آصرة النسب؛ فكانوا يتوارثون بها دون ذوي أرحامهم؛

(١) أخرجه البخاري (ح ٧٠١٨).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٣٧٨٢).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٥٨).

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال: ورثة، كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوّة التي آخى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم، فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ نسخت، ثم قال: [والذين عاقدت أيمانكم] إلا النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له[1].

وقد أحب الأنصار إخوانهم المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين وأكرموهم وآثروهم على أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

وقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالًا فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هَوِيتَ نزلت لك عنها فإذا حلَّت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوقٍ فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع، فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأقطٍ وسمن، ثم تابع الغُدوّ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صُفرة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تزوجت؟» قال: نعم، قال: «ومن؟» قال: امرأة من الأنصار، قال: «كم سقت؟» قال: زنة نواةٍ من ذهب، أو نواةً من ذهب، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْلِم ولو بشاة»[2].

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٢٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٢٠٤٨).

ولما فتحت البحرين أراد رسول الله ﷺ أن يعوِّض الأنصار بعض ما أنفقوه على إخوانهم المهاجرين، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطِع لهم البحرين فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «**إما لا فاصبروا حتى تلقوني؛ فإنه سيصيبكم بعدي أَثَرة**»(١).

وأصبح ميزان التفاضل بين الناس قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وذهبت حمية الجاهلية وتفاخرها بالأحساب والأنساب.

ورفع النبي ﷺ مكانة الأخوة بين المسلمين وشبه قوة صلة بعضهم ببعض بتماسك البنيان وبالجسد الواحد في لطافة الإحساس وسرعة المواساة؛ فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢)، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وشبَّك بين أصابعه(٣). وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى**»(٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نفّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة،**

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٧٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (ح ١٣)، ومسلم (ح ٤٥).
(٣) أخرجه البخاري (ح ٢٤٤٦)، ومسلم (ح ٢٥٨٥).
(٤) أخرجه البخاري (ح ٦٠١١)، ومسلم (ح ٢٥٨٦).

ومن سترمسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[(١)].

ونهى رسول الله ﷺ عن أسباب الخلاف من التباغض والتدابر ونحوهما؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[(٢)]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسْب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[(٣)].

وأنزلت الآيات على رسول الله ﷺ محذِّرةً من الفرقة والشقاق آمرةً بالاجتماع والاعتصام بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وحين فرّط المسلمون في هذه الأخوّة والصلة الشرعية مزّقهم الكفار بعداوات مفتعلة وفرقوهم بحدود وهمية، ثم شغلوهم بشعارات مصطنعة كالوطنية والقومية.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (ح ٢٦٩٩)، وقد مضى بعضه.
(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٠٦٤).
(٣) أخرجه مسلم (ح ٤٥٦٤).

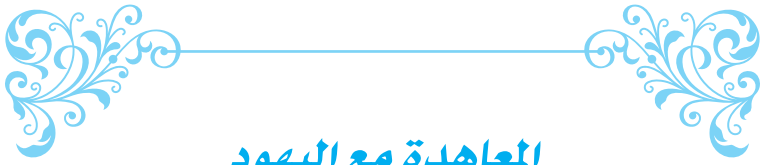

المعاهدة مع اليهود

كان اليهود يجدون في التوراة صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفة مُهاجَره فنزلوا المدينة رجاء أن يُبعث فيهم، وكانوا يذكرون ذلك كثيرًا للأوس والخزرج ويقولون: إن نبيًّا مبعوثٌ الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم.

ولما التقى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد الخزرج عند العقبة وكلمهم ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم، تَعلَّموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود؛ فلا تَسبقَنّكم إليه[1]، فأجابوه إلى الإسلام لما عرضه عليهم فحسدت اليهود العرب أن بُعث فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكذبوه وعادَوه مع علمهم صِدْقه بتحقق دلائل النبوة التي يجدونها في التوراة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

وقد ظهر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أول مقدمه المدينة أن اليهود أهل خيانة ومكر وكذب، يقول عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقد كان حبر اليهود يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت، فقال رسول الله

(١) الروض الأنف (٤/ ٤٣).

ﷺ: «أي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟» قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبدالله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرنا، ووقعوا فيه[1]. ومع هذا فقد كتب رسول الله ﷺ لهم كتابًا جاء فيه: «...أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم...، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين...، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته...، وأنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمدٍ ﷺ...، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم...، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمدٍ رسول الله ﷺ...، وأنه لا تُجار قريشٌ ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دَهم يثرب...، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ ولا آثم...»[2].

ومع وضوح هذا الكتاب لم يتخلّ اليهود عن مكرهم وكيدهم، ولا عن خيانتهم للإسلام وأهله بإلقاء الشبهات ليشكِّكوا في نبوة الرسول ﷺ، وبالتلبيس على الناس بتفسير بعض الحوادث على غير وجهها كما في تحويل القبلة وغيرها، وبسؤال النبي ﷺ تعنُّتًا أمام الملأ.

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٣٢٩)، والإمام أحمد (١٩/ ١١٤).
(٢) الروض الأنف (٤/ ٢٤٠-٢٤٣).

وكذلك كانوا ينتهزون كل فرصة للإضرار بالمسلمين، فتارةً يثيرون العداوة بين المسلمين بتذكيرهم ثاراتهم الماضية حتى كاد الأوس والخزرج يقتتلون، وتارة يهددون رسول الله ﷺ كقولهم له ﷺ لما وعظهم وذكرهم في سوق بني قينقاع بعد ما شَرِقوا بانتصار المسلمين في بدر: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا!!

ومن ذلك الإضرار أن يهوديًّا آذى امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع فقتله رجل من المسلمين فتواثب عليه اليهود فقتلوه، فوقع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع. ومن ذلك تحريضهم للأحزاب على غزو المدينة. ومن ذلك محاولة بني النضير قتل النبي ﷺ. ومن ذلك إغراء شعراءهم بهجاء النبي ﷺ والتشبيب بنساء المسلمين. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أجلى يهود بني قينقاع وبني النضير لنقضهم العهد.

وأما يهود بني قريظة فلم ينقضوا عهدهم إلا في غزوة الأحزاب في السنة الخامسة، وذلك حين حوصرت المدينة وكان مقتضى كتاب النبي ﷺ لهم أن يدافعوا عن المدينة مع المسلمين فبلغ النبيَّ ﷺ غدرُهم فأرسل إليهم السَّعدَين ليستثبتوا من أمرهم، فذكَّراهم العهد فناكروهم وسبُّوهم وسبُّوا رسول الله ﷺ، وأعلنوا مظاهرتهم للأحزاب فأصبح حال المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾، فصاروا بذلك غزاةً محاربين.

فلما هزم الله الأحزاب وانسحبوا يجرون أذيال الخيبة ورجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فغسل رأسه واغتسل أتاه جبريل فقال: أَوَقَد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، إن الله عَزَّوَجَلَّ يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذنًا، فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

فحاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما اشتد الحصار عليهم نزلوا على حكم حليفهم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيّد الأوس، فحكَمَ فيهم بقتل المقاتِلة وسبي النساء والذرية، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**».

لقد كشفت هذه الوقائع أن الغدر متأصل في اليهود وأنهم كلما سنحت لهم فرصة أظهروا شدة عداوتهم للمسلمين وحرصوا على إيصال الشر والفساد إليهم ما استطاعوا.

فرض الجهاد في سبيل الله

لما هاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وأيده الله بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ومنعته أنصار الله من الأحمر والأسود رماهم المشركون عن قوس واحدة، فلما قوي المسلمون أذن الله تعالى لهم في القتال ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، وهي أول آية نزلت في القتال، ثم فَرض عليهم قتال من قاتلهم فقال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقال الله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشاور أصحابه في أمر الحرب، وكان يبعث البعوث ويُرسل الطلائع والعيون ليطلع على حقيقة أمر العدو، وكان إذا أراد غزوةً ورّى بغيرها، وكان يبايع أصحابه في الحرب على أن لا يفروا، وربما بايعهم على الموت، ، وكان يرتب الجيش والمقاتلة، وكان يلبس للحرب عُدّتها وربما ظاهر بين درعين كما فعل يوم بدر، وكان إذا لقي عدوًّا دعا الله واستنصره وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله والتضرع له، وكان الصحابة إذا اشتد البأس اتقَوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويكون أقربهم إلى العدو.

وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثًا ثم قفل، وكان يتخلف في ساقتهم فيُعِين الضعيف ويردف المنقطع.

قال محمد بن إسحاق: كانت غزوات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي خرج فيها بنفسه سبعًا وعشرين، و كانت بعوثه و سراياه ثمانيًا وثلاثين[1].

ومن أشهر غزواته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدر، وأُحد، والخندق، والحديبيَة، وخيبر، وفتح مكة، وتبوك.

(١) الفصول (ص٢٠٤).

غزوة بدر الكبرى

كانت غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية، خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، لثمان خلون من رمضان، ولم يكن معه من الخيل سوى فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود الكندي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومن الإبل سبعون بعيرًا، يعتقب الرجلان والثلاثة فأكثر على البعير الواحد، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليّ ومَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعتقبون بعيرًا.

وسار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما قرب من الصفراء بعث بَسْبَس بن عمرو وعدي ابن أبي الزغباء الجهنيين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى بدر يتحسّسان الأخبار.

وخرج المشركون من مكة فيما بين تسعمائة إلى ألف رجل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فجمعهم الله على غير ميعاد لِما أراد في ذلك من الحكمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

ولما بلغ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خروج قريش استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم وهو يريد الأنصار، فبادر سعد بن

معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، كأنك تعرِّض بنا، فوَالله يا رسول الله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك، فسِرْ بِنا يا رسول الله على بركة الله. فسُرّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك وقال: «**سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين**».

ومشى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضع المعركة، وجعل يريهم مصارع رؤوس القوم واحدًا واحدًا، ويقول: «**هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان**». قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فوَ الذي بعثه بالحق ما أخطأ واحدٌ منهم موضعه الذي أشار إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الليلة يصلي إلى جِذْم شجرة هناك، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان، فلما أصبح وأقبلت قريش في كتائبها ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت في فخرها وخيلائها تُحادُّك وتحاد رسولك**».

وعدَّل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصفوف، وخرج من المشركين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يطلبون البِراز، فبرز لهم عليّ وعبيدة بن الحارث وحمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقَتل عليٌّ الوليد، وقتل حمزة عتبة، وقيل: شيبة، واختلف عبيدة وقِرنه بضربتين فأجهد كلّ منهما صاحبه، فكَرّ حمزة وعليّ فتمما عليه واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، حتى مات بالصفراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم حمي الوطيس واشتد القتال واجتهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعاء، وابتهل ابتهالًا شديدًا حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه، وجعل أبو بكر

يصلحه عليه ويقول: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك فإنه منجزٌ لك ما وعدك ورسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، ثم أغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً ثم رفع رأسه وهو يقول: «**أبشريا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع**»، ونزل النصر، وقاتلت الملائكة كما أمرها الله، وكان الرجل من المسلمين يطلب قِرنه فإذا به قد سقط أمامه! ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين يقتلون ويأسرون، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وأخذوا غنائمهم.

فكان من جملة من قتل من المشركين أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، فأمر بهم رسول الله ﷺ فسُحبوا وأُلقُوا في قليب من قلُب بدر.

ثم ارتحل بالأسارى والمغانم، وأنزل الله في غزوة بدر سورة الأنفال، واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين مهجع مولى عمر بن الخطاب وعمير بن أبي وقاص وعاقل بن البكير وذو الشمالين الخزاعي وصفوان بن بيضاء الفهري، وثمانية من الأنصار يزيد بن الحارث وعوف ومعوِّذ ابنا عفراء ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة وسعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر وعمير بن الحمام رضي الله عنهم.

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيَّدًا مظفَّرًا منصورًا قد أعلى الله كلمته ومكَّن له، فأسلم حينئذ بَشَر كثير من أهل المدينة ودخل في الدين تقيةً عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وأصحابه من المنافقين.

الدروس والعبر:

١- العجز عن بعض الأسباب ليس عذرًا للقعود عن جلائل الأعمال.

٢- من الحزم تحصيل ما يفيد في إنجاح العمل من أسبابٍ كجمع أخبار العدو وتهيئة السلاح.

٣- من تمام العبودية الفرار إلى الله تعالى والانتصار به ولزوم دعائه عند الشدائد.

٤- التواضع والتذلل لله من أسباب النصر، والكبر والبطر من أسباب الهزيمة.

٥- لا غنى لأحد عن الاستشارة ولو كان أعقل الناس، فلا يصلح التفرد بالرأي في الأمور العامة؛ فكم جرّ ذلك على الأمة من نكبات.

غزوة أُحـد

كانت غـزوة أحد في شـوال سنة ثـلاث، خرج المشركون قريش وحلفاؤهم في ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس، جعلوا على مَيمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وجاؤوا بنسائهم لئلا يفروا، ثم أقبلوا نحو المدينة فنزلوا قريبًا من جبل أحد بمكان يقال له: عَينَين.

وشاور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وقال لهم: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، فأشار بعض الصحابة بالمقام بالمدينة وأشار آخرون ممن فاتهم حضور بدر بالخروج إليهم، فلم يزالوا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى دخل بيته فلبس لَأْمته وخرج عليهم وقد ندموا فقالوا: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد، فقال: «**ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**».

وخرج إلى أُحد في ألف، فلما كان ببعض الطريق انخزل عبد الله بن أبي بن سلول بنحو ثلاثمائة ورجع بهم إلى المدينة، وسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمن بقي معه حتى نزل شِعب أحد فجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم، فلما أصبح تعبّأ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للقتال في أصحابه، وكان فيهم خمسون فارسًا، واستعمل على الرماة وكانوا خمسين عبد الله بن جبير

الأوسي وأمره وأصحابه أن لا يبرحوا مكانهم وأن يحفظوا ظهور المسلمين أن يؤتَوا من قِبلهم.

وأعطى اللواء مصعب بن عمير، وجعل على إحدى المُجنِّبَتَين الزبير ابن العوام، وعلى المجنبة الأخرى المنذر بن عمرو. واستعرض الصغار يومئذ فأجاز بعضهم ورد آخرين، فكان ممن أجاز سمرة بن جندب ورافع ابن خَديج ولهما خمس عشرة سنة.

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ «أَمِتْ أمت»، وأبلى يومئذ أبو دُجانة سماك بن خَرَشة وحمزة عم رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله وأنس بن النضر وسعد بن الربيع وغيرهم بلاء حسنًا رضي الله عنهم أجمعين، وكانت الدَّولة أول النهار للمسلمين فانهزم المشركون راجعين حتى وصلوا إلى نسائهم، فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير قالوا: يا قوم، الغنيمة الغنيمة! فذكّرهم عبد الله بن جبير تقديم رسول الله ﷺ إليه في ذلك، فظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا في طلب الغنيمة، وكرّ فُرْسان المشركين فوجدوا تلك الفرجة قد خلت من الرماة فجاوزوها وتمكنوا وأقبل آخرهم، فكان ما أراد الله تعالى كونه، فاستشهد مَن أكرمهم الله بالشهادة من المؤمنين، فقُتل جماعة من أفاضل الصحابة، وتولى أكثرهم، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ فجُرح وجهه الكريم وكسرت رَباعِيَته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة على رأسه، ورشقه المشركون بالحجارة حتى وقع لشقه وسقط في حفرة من الحفر

فأخذ عليّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله ونَشِبت حَلْقتان من حِلَق المغفر في وجهه ﷺ، فانتزعهما أبو عبيدة عامر بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيّتاه فكان الهَتَم يَزِينه، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم مِن جرحه ﷺ.

واستشهد يومئذ من المسلمين نحو السبعين، منهم حمزة عم رسول الله ﷺ وعبد الله بن جحش ومصعب بن عمير وشَمّاس بن عثمان المخزومي، فهؤلاء أربعة من المهاجرين، والباقون من الأنصار رضي الله عنهم جميعهم، فدُفنوا في دمائهم ولم يُصلّ عليهم يومئذ.

وقتل يومئذ من المشركين اثنان وعشرون، وقد ذكر الله سبحانه هذه الغزوة في ستين آية من سورة آل عمران وذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الآيات.

الدروس والعبر:

١- من حسن المشاورة تهيئة النفوس قبل الاستشارة.

٢- من صفات القيادة الراشدة الرحمة واللين والعفو والحلم والمشاورة.

٣- من سنن الله سبحانه أن الطاعات سبب في النصر والمعاصي سبب في الهزيمة.

٤- المنافقون قديمًا وحديثًا يمكرون بالأمة، وتضليلهم الإعلامي والنفسي من أسوأ ما ابتليت به الأمة، فهم يجيدون المغالطات والتخذيل عن العمل وشق صف المجاهدين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى

ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾.

٥- ما يصيب المؤمن من عدوه لا يعدو كونه أذى يجزيه الله به وينتفع به تسديدًا في رأيه وقوة في نفسه ولا يعني في حقيقة الأمر انكسارًا ولا هزيمة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

٦- دين الله منصور والناكص على عقبيه لا يضر إلا نفسه وسيجزي الله الشاكر، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

٧- النصر والهزيمة من عند الله تعالى، ولكلٍّ منهما سننٌ لا تتبدل ولا تتغير، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، وقال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

غزوة الخنـدق

كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس، وسببها أن نفرًا من يهود بني النضير خرجوا إلى قريش بمكة فألَّبوهم على حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم النصر فأجابوهم، ثم خرجوا إلى غَطَفان فدعَوهم فأجابوهم أيضًا، وخرجوا يريدون المدينة في نحو عشرة آلاف رجل وعلى قريش أبو سفيان بن حرب وعلى غطفان عُيينة بن حصن، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر بحفر خندق حول المدينة، وكان ذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه مبادرين وصول المشركين، وقدم المشركون فعسكروا قرب المدينة.

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف، فتحصن بالخندق فجعلوا ظهورهم إلى سَلْع، وأمر بجعل النساء والذراري في الآطام.

وانطلق حُيَيّ بن أخطب النضري إلى بني قريظة، فالتقى كعب بن أسد رئيسهم، فلم يَزَل به حتى نقض العهد ووافق المشركين على حرب رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة إلى بني قريظة فوجداهم مجاهرين بالغدر، فلما قدما عليه قال: ما وراءكم ؟ قالوا: عَضْل والقارَة، يعنون غدرهم، فعظم ذلك على المسلمين، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

ودام حصار المشركين للمدينة شهرًا، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله به بينهم من الخندق، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ وجماعة معه يَمّموا مكانًا ضيّقًا من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلُهم في السَّبِخة بين الخندق وسلع ودعوا للبِراز، فانتدب لعمرو بن عبد ود عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبارزه فقتله الله على يديه، وكان عمرو لا يجارى في الجاهلية شجاعة، وكان هذا أول ما فتح الله به من خذلان المشركين.

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قائدي غطفان عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فلما أراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما، فقالا له: يا رسول الله، أمرًا تحبه فنصنعه أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فأنت وذاك».

ثم إن نُعيم بن مسعود الغطفاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت فمُرْني بما شئت، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة»، فذهب إلى بني قريظة فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بني قريظة، إنكم قد حاربتم محمدًا، وإن قريشًا إن أصابوا فرصةً انتهزوها وإلا شمروا إلى بلادهم وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم! قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم نهض إلى قريش فقال لهم: تعلمون ودّي ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم. ثم ذهب إلى قومه غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت بعثوا إلى يهود: إنا لسنا بأرض مقام فانهضوا بنا غدًا نناجز هذا الرجل، فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رُهُنًا، فلما جاءهم الرسل بذلك قالت قريش: صدَقَنا والله نعيم بن مسعود، وبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل لكم أحدًا فاخرجوا معنا، فقالت قريظة: صدق والله نعيم، وأبوا أن يقاتلوا معهم، فدبَّ في قريش ومن معهم الخَوَر، وأرسل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الريح تزلزلهم، فجعلوا لا يقر لهم قرار و لا تثبت لهم خيمة ولا طنب ولا قِدر ولا شيء، فلما رأوا ذلك ترحلوا من ليلتهم تلك، قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

الدروس والعبر:

١- الغدر متأصل في اليهود، فمهما أحسن المسلمون إليهم فلن يجدوا منهم إلا الشر، فمن الحزم اتخاذ ما يقي شرهم.

٢- لم يقصر المسلمون الأولون في اتخاذ أسباب النصر والتمكين مع عظيم توكلهم على الله عَزَّوَجَلَّ ويقينهم بنصره.

٣- من العقل والحزم والنصح ألا يذاع ما من شأنه أن يفتّ في عضد المسلمين.

٤- من حُسن النظر والتدبير بذل المال لتخفيف الضرر عن المسلمين.

٥- لا يحقر عمل أحد من المسلمين في نفع المسلمين، فمن الرشد استعمال قدرات الناس في المجال المناسب.

٦- من الحزم استخدام الذكاء والفطنة في تشتيت الأعداء.

٧- من توكل على الله كفاه ومن التجأ إليه حماه، فلا تشغل ذهنك بالتطلع لمعرفة من أين يأتي النصر، فما يعلم جنود ربك إلا هو.

غزوة الحديبية

كانت غزوة الحديبية في ذي القَعْدة سنة ستّ بلا خلاف، قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة رمضان وشوالًا وخرج في ذي القعدة معتمرًا لا يريد حربًا، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومعظمًا له. حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوًى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كُراع الغميم. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش! فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».**

ثم قال: **«مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟»** فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا أجرل بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع

الوادي قال رسول الله: «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه»، فقالوا ذلك، فقال: «والله إنها لَلحِطّة التي عُرضت على بني إسرائيل» فلم يقولوها. فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهرَي الحَمْض، في طريق يخرجه على ثنية المُرار مهبط الحديبية من أسفل مكة». قال: فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قَتَرة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش.

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس: خلأت. فقال: ما خلأت وما هو لها بخُلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدْعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها. ثم قال للناس: انزلوا، قيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه. فأخرج سهمًا من كنانته فأعطاه رجلًا من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القُلب، فغرزه في جوفه فجاش بالرَّواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بُديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا لحرمته. ثم قال لهم نحو ما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدًا لم يأت لقتال، إنما جاء زائرًا لهذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالًا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تَحدّثُ بذلك عنا العرب.

قال: ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا قال: هذا رجل غادِر. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلَّمه قال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قال لبُديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ثم بعثوا بحُلَيس بن علقمة أو ابن زَبّان وكان يومئذٍ سيد الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون؛ فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه.

فلما رأى الهدي يسيل عليه من عُرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن مَحِله رجع إلى قريش ولم يَصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى، فقال لهم ذلك. قال: فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاهدناكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاءه معظمًا له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرةَ رجل واحد. قالوا: مه، كُفّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد، أجَمعتَ أوشابَ الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوةً أبدًا، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا. قال: وأبو بكر

الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بهذه.

قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديد، قال: فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ألا تصل إليك! قال: فيقول عروة: ويحك ما أفظَّك وأغلظك!.

قال: فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»، قال: أَيْ غُدَر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! فكلمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنحوٍ مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا، فقام من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريشٍ، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قومه قط مثل محمد في أصحابه! ولقد رأيت قومًا لا يُسْلمونه لشيء أبدًا، فرَوا رأيكم.

فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت

ومعظمًا لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه ثم أجاره، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجَدّ بن قيس أخو بني سَلِمة. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان فضرب بإحدى يديه الأخرى. ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وقالوا: ائت محمدًا وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فو الله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوةً أبدًا. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى سُهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعَا ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر رضي الله عنه فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أوَلسنا بالمسلمين؟

قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا عمر، الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني». وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيرًا.

ثم دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكتب باسمك اللهم»، فكتبها. ثم قال: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرٍو»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبةً مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه،

وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابِل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب السيوف في القُرُب لا تدخلها بغيرها.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

فلما فرغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلح قام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، فلما رأى الناس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون.

ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجهه ذلك قافلًا حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

الدروس والعبر:

١- يجب العزم على المضيّ في نصرة دين الله ولو كان الثمن بذل النفس، فلا مساومة على الدين ولا تنازل.

٢- في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تدْعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**» الحرص على تحقيق الغاية وتجاوز ما يعرض دون ذلك.

٣- لزوم الاستغفار عند حصول المشاق من التوكل.

٤- من سمو الأخلاق في الإسلام الذب عن المظلوم ولو كان بهيمة.

٥- من الفقه التعاون في تعظيم حرمات الله تعالى ولو مع الأعداء.

٦- مما يعين المفاوض على بلوغ مراده معرفة صفات من يفاوضه.

٧- توضيح الغاية للناس مما يعين على تحصيل المراد منهم.

٨- من فقه النفس معرفة الخطأ والعمل على تكفيره بفعل الطاعات.

غـزوة خيبـر

كانت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستعمل على المدينة سِباع بن عُرفطة الغطفاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواد يقال له الرَّجيع بين اليهود وغطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر.

ثم أتى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيبر ليلًا فبات وكان إذا أتى قومًا بليل لم يغزهم حتى يصبح. قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حتى إذا أصبح استقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والجيش قالوا: محمد والخميس معه! فأدبروا هُرّابًا فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله أكبر خَرِبتْ خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين».

وتدنَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأموال يأخذها مالًا مالًا ويفتتحها حصنًا حصنًا، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم وعنده قُتل محمود بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألقيت عليه منه رحًى فقتلته.

وفتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصون النطاة والشق والكتيبة والقَموص حصن بني أبي الحُقيق وغيرها وأصاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم سبايا، وأصابوا من لحوم الحمُر وأوقـدوا عليها النيران، فنادى منادي النبي

ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس، أهريقوها واكسروها، فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها؟ فقال: «أوذاك».

وقال رسول الله ﷺ يوم خيبر: «لأعطين هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيّهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على النبي ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. فأرسل إليه فأتى، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وقال: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك»، فسار علي شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». وقال له: «انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوَالله لَأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم»، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فخرج مرحب صاحب الحصن يخطر بسيفه وعليه مغفر مظهر يماني وحجر قد نقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز، وقال:

قد علمت خيبر أني مَرحبُ شاكي السلاح بطل مجرّبُ

إذا الحروب أقبلَت تَلهَّبُ

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أنـا الـذي سـمّـتنِ أمي حيـدره كليـث غـابـات كـريـه المنـظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فاختلفا ضربتين فبدره علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتله بضربة قدّ الحجر والمغفر ورأسَه ووقع في الأضراس. ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز؟ فخرج الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالتقيا فقتله الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز انتهوا إلى حصنيهم الوَطِيح والسُّلالم وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحًا، فحاصرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضع عشرة ليلة، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيِّرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل، فلما سمع بهم أهل فَدَك بعثوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل، فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعاملهم في الأموال على النصف وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها، فصالحهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئًا بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

ولما افتتح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القموص حصن بني أبي الحقيق أتي بصفية بنت حيي بن أخطب وأمر بها فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه،

فعرف المسلمون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اصطفاها لنفسه، وأعرس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفية ببعض الطريق فبات بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبة له وبات أبو أيوب يحرس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأى مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك.

غزوة فتح مكة

كانت غزوة فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة، وسببها أن كفار قريش نقضوا ما صالحهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليه يوم الحديبية وناصروا حلفاءهم قبيلة بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى أتى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأعلمه بما كان من كفار قريش واستنصره عليهم بأبيات منها:

يـا رب إني نـاشـد محـمـدا ... حـلـف أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا

إلى أن قال:

فانصر هداك الله نصرًا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفًا وجهه تربدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركّعًا وسجدا

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى

مكة فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لكأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: «جدد العهد وزد في الهدنة» وهو راجع بسخطه. ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن سالم وأصحابه: «ارجعوا وتفرقوا في الأودية!» وقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل على عائشة وهو مغضب، فدعا بماء فدخل يغتسل، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فأسمعه يقول وهو يصب الماء عليه: «لا نصرت إن لم أنصر بني كعب»! وقدم أبو سفيان المدينة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرض عليه بقاء الصلح، فلم يجبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلمة واحدة.

ثم شرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجَهاز إلى مكة، وسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يأخذ عن قريش الأخبار ويستر عنهم خروجه فاستجاب له ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعشر خلون من رمضان في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب.

وأما قريش فعمَّى الله عليها الخبر إلا أنهم قد خافوا، وخرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتحسسون الخبر، فلما رأوا النيران أنكروها، فقال بديل: هي نار خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أقل من ذلك.

وركب العباس بغلة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلتئذ، وخرج من الجيش لعله يلقى أحدًا، فلما سمع أصواتهم عرفهم، فقال: أبا حنظلة؟ فعرفه أبو سفيان، فقال: أبو الفضل؟ قال: نعم. قال: ما وراءك؟ قال: ويحك، هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس واصباح قريش! قال: فما الحيلة؟ قال: والله لئن ظفر بك ليقتلنك، ولكن اركب ورائي وأسلِم، فركب وراءه وانطلق به

فأدخله على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتيه به غدًا، فلما أصبح أتى به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعرض عليه الإسلام فتلكأ قليلًا، ثم زجره العباس فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الشرف، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**».

وقد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يوقف أبا سفيان عند خَطم الجبل لينظر إلى جنود الإسلام إذا مرت عليه.

وقد جعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المقدمة وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الميمنة، والزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الميسرة ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القلب، وأعطى الراية سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير أن يدخل من كَداء من أعلى مكة وأن تنصب رايته بالحَجون، وأمر خالدًا أن يدخل من كُدى من أسفل مكة، وأمرهم بقتال من قاتلهم. وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا جمعًا بالخَندَمة، فمر بهم خالد بن الوليد فقاتلهم، فقُتل من المسلمين ثلاثة وهم كُرز بن جابر الفهري وحبيش بن خالد الخزاعي وسلمة بن الميلاء الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلًا وفر بقيتهم.

ودخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وهو راكب على ناقته وعلى رأسه المغفر ورأسه يكاد يمس مقدمة الرحل من تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه عَزَّوَجَلَّ، وقد أمَّن الناسَ. وذهب إلى بيت أم هانئ بنت أبي طالب واغتسل فيه وصلى

ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين وخرج إلى البيت فطاف به طواف قدوم ولم يسع ولم يكن مُحرِمًا.

ودعا بالمفتاح فدخل البيت وأمر بإلقاء الصور ومحوها منه، وأذَّن بلالٌ يومئذ على ظهر الكعبة، ثم رد رسول الله ﷺ المفتاح إلى عثمان بن طلحة وأقرهم على السِّدانة، وكان الفتح لعشر بقين من رمضان.

وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنمًا، فكسرها رسول الله ﷺ جميعًا، ولم يُبق صنمًا ليتألف به قريش؛ إذ لا تأليف بالشرك، مع أنه ترك الكعبة على بنائهم لها على غير قواعد إبراهيم عليه السلام تأليفًا لهم، وبهذا الفتح هزم الشرك ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

الدروس والعبر:

١- ليس كل كلام له جواب؛ فبعض السكوت أبلغ من الكلام.

٢- على المسلم الحرص على تحصيل المنافع بأقل الأضرار، ومن ذلك إخفاء ما في إظهاره ضرر أو ما لا يُحتاج إليه من الأخبار.

٣- من الحرب إرهاب الأعداء بإظهار ما يقذف الرعب في قلوبهم.

٤- من الحكمة إعطاء ذوي الشأن منزلة تحفظ لهم كرامتهم بما لا يضر المسلمين.

٥- إذا أظهر الله المؤمن على عدوه فينبغي أن يزيده ذلك شكرًا وتواضعًا لله تعالى.

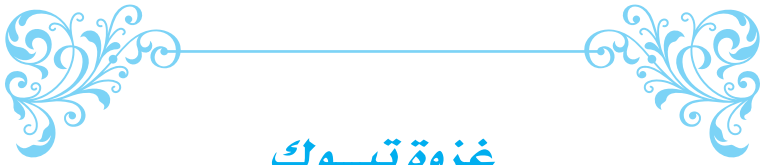

غزوة تبــوك

كانت غزوة تبوك في رجب من سنة تسع، ندَب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل المدينة ومن حولهم إلى غزو الروم، وكان لا يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها إلا هذه الغزوة، فإنه صرح لهم بها ليتأهبوا لشدة عدوهم وكثرته ولبعد الشقة، وذلك حين طابت الثمار وكان ذلك في سنة مجدبة، فتأهب المسلمون لذلك، وأنفق عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على هذا الجيش -وهو جيش العسرة- مالًا عظيمًا وحمل على ألف بعير ومائة فرس وجهّزها أتم جهاز حتى لم يفقدوا عقالًا ولا خطامًا، ونهض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نحو من ثلاثين ألفًا.

وتخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عذره الله من الرجال ممن لا يجد ظَهرًا أو نفقة كالبكّائين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتخلف بغير عذر مُرَارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، ثم تاب الله عليهم بعد قدوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمسين ليلة، وتخلف المنافقون كفرًا و عنادًا، و كانوا نحو الثمانين رجلًا.

وسار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمر في طريقه بالحِجْر فأمرهم أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا أن يكونوا باكين وأن لا يشربوا إلا من بئر الناقة، وما كانوا عجنوا به من غيره فليعلفوه الإبل، وجازها مقنّعًا فبلغ تبوك وفيها عين تَبِضّ بشيء من ماءٍ قليل فكثرت ببركته، مع ما شوهد من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه مقدار العنز الباركة، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ فأكلوا منه وملأوا كل وعاءٍ كان في ذلك الجيش.

ولما انتهى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى تبوك لم يَلْقَ كيدًا فعزم على الرجوع، وصالَح صاحبَ أَيْلة، وبعث خالدًا إلى أُكَيدِر دُومة، فجيء به فصالحه أيضًا ورَدّه، ثم رجع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المدينة وأمر بهدم مسجد الضِّرار الذي نهى الله رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقوم فيه أبدًا.

وكان رجوعه من هذه الغزوة في رمضان من سنة تسع، وأنزل فيها عامة سورة التوبة، وعاتب الله عَزَّوَجَلَّ من تخلف عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

الدروس والعبر:

١- من الحزم إعطاء الأمر ما يستحقه من تهيئة؛ فالأمر العظيم يحتاج إلى استعداد عظيم.

٢- الشدائد ولو عظمت لا تصد المؤمن عن نصرة دين الله تعالى.

٣- المؤمن الصادق يصبر على ما تقتضيه التوبة والرجوع إلى الحق.

٥- المؤمن يحرص على تجنب أسباب عذاب الله ولا يأمن أن يصيبه ما أصاب المعذبين.

حجـــة الـــوداع

أجمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخروج للحج في ذي القعدة سنة عشر من الهجرة وآذن الناس بذلك، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يريد أن يأتمّ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعمل بعمله، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة فصلى الظهر بذي الحليفة ركعتين، وأحرم عند صلاة الظهر، وساق مائة بدنة، وأمر من كان معه هدي أن يهلّ كما أهلّ، وكان يأمر المشاة أن يركبوا على بُدنه، وسار وبين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله أمم لا يحصون كثرة، وكان معه تسعون ألفًا، وقيل: أكثر من ذلك.

ودخل مكة يوم الأحد الرابع من ذي الحجة من كداء من أعلاها حتى انتهى إلى باب بني شيبة، فلما رأى البيت رفع يديه ثم قال: اللَّهمّ زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًّا، ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة، فلما انتهى إلى الركن استلمه وهو مضطبع بردائه، وقال: بسم الله والله أكبر. ثم رمل ثلاثة أشواط من الحَجَر إلى الحجر، وقال فيما بين الركن اليمانيّ والأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. ولم يستلم من الأركان إلا اليماني والأسود،

ومشى أربعة، ثم صلى خلف المقام ركعتين، قرأ فيهما بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم عاد إلى الركن فاستلمه.

ثم خرج إلى الصفا وقال: نبدأ بما بدأ الله به. فصعد على الصّفا فكبّر وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، صدق اللَّه وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بين ذلك. ونزل إلى المروة، وهرول في بطن الوادي حتى انكشف إزاره عن فخذه. فلما انتهى إلى المروة فعل عليها مثل ما فعل على الصفا، فبدأ بالصفا وختم بالمروة.

وأقام بمكة حتى إذا كان قبل التروية بيوم خطب بعد الظهر. وقام يوم التروية بين الرّكن والمقام، فوعظ الناس وقال: من استطاع أن يصلّي الظهر بمنى فليفعل. فصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى.

ولم يركب من منى حتى رأى الشمس قد طلعت فركب إلى عرفة، ونزل بنمرة، وقد ضرب له بها قبة من شعر، فلما زاغت الشمس أمر براحلته القصواء فرحلت برحل رثّ وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: اللَّهمّ حجّة لا رياء فيها ولا سمعة، ثم أتى ﷺ بطن عرنة وخطب على ناقته حين زاغت الشمس، فمما جاء في خطبته: «أيها الناس، إني والله ما أدري لعلي لا ألقاكم بمكاني هذا بعد يومكم هذا، رحم اللَّه امرأ سمع مقالتي فوعاها، فربّ حامل فقه لا فقه له، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه! واعلموا أن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. وقال فيها: ألا إن كلّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدميّ موضوع، وأول دماء الجاهلية أضع

دم إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وربا الجاهلية موضوع كله وأول ربا أضعه ربا عبّاس بن عبد المطلب». وقال: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم مسئولون عنّي، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت! ثم قال بإصبعه السبّابة يشير إلى السماء يرفعها وينكتها إلى الناس ثلاثًا: «اللّهمّ اشهد». وكان الّذي يبلّغ عنه بعرفة ربيعة بن أميّة بن خلف لكثرة الناس.

فلما كان آخر خطبته أذّن بلال وأقام فصلّى الظهر ثم أقام فصلّى العصر ثم ركب وهو يشير بيده إلى الناس: ارتفعوا إلى عرفة. وقال: «إن أفضل دعائي ودعاء من كان قبلي من الأنبياء: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير».

ووقف على راحلته حتى غربت الشمس يدعو، ونزل عليه وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

ثم دفع إلى مزدلفة وكان يسير العَنَق فإذا وجد فجوة نصّ وقال: أيها الناس، على رسلكم، عليكم بالسكينة، ليكفّ قويكم عن ضعيفكم. وصلّى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين، ولما طلع الفجر صلى الصبح، ثم ركب راحلته ووقف عند المشعر الحرام، ثم أفاض من المزدلفة قبل طلوع الشمس، وحمل حصى العقبة من المزدلفة، وأسرع في وادي محسّر ولم يقطع التلبية حتى رمى جمرة العقبة على ناقته ولا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك، وقد قال

ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله». ولما انتهى إلى المنحر قال: «كل منى منحر، وكلّ فجاج مكة طريق ومنحر»، ثم نحر بيده ثلاثًا وستين بدنة بالحربة، ثم أعطى عليًّا رضي الله عنه فنحر ما بقي، ولما فرغ من نحر الهدي دعا الحلاق، وحضر المسلمون يطلبون شعره، فناول الحلاق شقّ رأسه الأيمن ثم أعطاه أبا طلحة الأنصاري، ثم ناوله الشّق الأيسر فحلقه فأعطاه أبا طلحة، فقال: «اقسم بين الناس»، وكلمه خالد بن الوليد في ناصيته حين حلق فدفعها إليه فكان يجعلها في مقدّم قلنسوته فلا يلقى جمعًا إلا فضّه.

وأصاب ﷺ من الطِّيب بعد أن حلق ولبس القميص، وجلس للناس فما سئل يومئذ عن شيء قدّم أو أخر إلا قال: افعله ولا حرج. وأفاض ﷺ يوم النحر وأردف معاوية بن أبي سفيان من منى إلى مكة، وكان يرمي الجمار حين تزول الشمس قبل الصلاة ماشيًا ذاهبًا وراجعًا، وكان إذا رمي الجمرتين وقف عندهما ورفع يديه، ولا يفعل ذلك في رمي العقبة، ونهى أن يبيت أحد ليالي منى بسوى منى، ونفر يوم الصدَر فنزل بالأبطح في قبة ضربت له، فلما كان في آخر الليل خرج فودّع البيت، ثم مضى من وجهه إلى المدينة ﷺ.

وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بعد رجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحج بدأ به مرض الموت بأبي هو وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شهر ربيع الأول. عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاشتد مرضه فقال: «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس»[(١)].

وأوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأيام الأخيرة من حياته بأمور منها الصلاة والرفق بالمملوك؛ فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه[(٢)].

ومنها إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، ومنها إجازةُ الوفود قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا يبقى فيها إلا مسلم» وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موته فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفود بنحو مما كنت أجيزهم» وعن أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: آخر ما تكلم به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٧٨)، ومسلم (ح ٤٢٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (ح ١٦٢٥)، والإمام أحمد (٤٤/ ٢٦١).

ومنها التحذير من اتباع سنن اليهود والنصارى فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، لولا ذلك أبرز قبره غير أنه خَشي أو خُشي أن يتخذ مسجدًا[(١)].

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»[(٢)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه الذي مات فيه عاصبًا رأسه بخرقة، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إنه ليس من الناس أحد أَمَنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خُلّة الإسلام أفضل، سُدّوا عني كل خَوْخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر**»[(٣)].

ثم اشتد الوجع برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بين يديه رَكوة أو عُلبة فيها ماء فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إنّ للموت سكرات»، ثم نصب

(١) أخرجه البخاري (ح ١٣٩٠)، ومسلم (ح ٥٢٩).
(٢) أخرجه مسلم (ح ٥٣٢).
(٣) أخرجه البخاري (ح ٤٦٧).

يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالت يده[1]. وانتقل إلى جوار ربه تعالى في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٥١٠). والعلبة من الخشب، والركوة من الأدم، قاله البخاري.

التربية والتعليم

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبرز للناس ولا يحتجب عنهم، وكان يبايع الوفود ولا ينيب عنه أحدًا من أصحابه، ولا يكتفي بكبير الوفد بل يبايعهم واحدًا واحدًا، وأحيانًا يجيء الرهط من الناس ليبايعوه فيرى في أحدهم مظهرًا من مظاهر الشرك من بقايا الجاهلية فيأبى أن يبايعه حتى يزيله؛ فعن عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقبل إليه رهطٌ فبايع تسعةً وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعةً وتركت هذا! قال: «إن عليه تميمةً»، فأدخل يده فقطعها فبايعه، وقال: «من علق تميمةً فقد أشرك»[1].

إن اشتغال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجهاد ومجالدة الشرك وأهله وتربية أصحابه على ذلك وعلى أن يأخذوا بمعالي الأمور ليكونوا قادة للأمة لم يشغله عن أن يعمهم كبيرهم وصغيرهم بالإرشاد والتعليم لا يدع موطن زلل إلا بيَّنه وأصلحه ولا موطن خير إلا حثهم عليه ورغبهم فيه، وربما علَّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه بتكرار النداء، يقول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت ردف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار يقال له عُفير، فقال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعةً، فقال: «يا معاذ»، قلت: لبيك

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٨/ ٦٣٧).

رسول الله وسعديك، ثم سار ساعةً، فقال: «**يا معاذ بن جبل**»، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «**هل تدري حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»[(١)].

وقد بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلمًا لأهل اليمن وأميرًا عليهم وأرشده إلى البدء بتعليم ما يناسب الحال فقال له: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلواتٍ في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»[(٢)].

وقد وصف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: إنا والله قد صحبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا ويتبع جنائزنا ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٨٥٦)، ومسلم (ح ٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (ح ١٤٩٦)، ومسلم (ح ١٩).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٣٢).

وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس تعليمًا قال معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: (ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه)، فيخاطب كل متعلم بما يناسبه، فتارةً يؤكد بالقسم، وتارةً بالتكرار، وأخرى بالنداء، وأحيانًا بإبهام الشيء لحمل السامع على كشفه والسؤال عنه كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»[(١)].

وأحيانًا ينبه على خطأ؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله وإلا فليصمت**»[(٢)]. وفي السنَة التي مات بها ابن النبي ﷺ إبراهيم يقول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم، فقال الناس: انكسفت لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعُوا الله وصلُّوا حتى ينجلي**»[(٣)]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٧٦٦)، ومسلم (ح ٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٦١٠٨)، والإمام أحمد (١/ ١٧٠).
(٣) أخرجه البخاري (ح ١٠٦٠)، ومسلم (ح ٩١٥).

مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه -أي لا تقطعوا عليه بوله- دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عَزَّوَجَلَّ والصلاة وقراءة القرآن»، قال: فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلوٍ من ماء فشنّه عليه[1].

وكان رسول الله ﷺ يبعث أصحابه لإزالة المنكر، فعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته، وفي رواية: ولا صورةً إلا طمستها[2].

ولم يكن رسول الله ﷺ يخصّ أحدًا من أقاربه بعلم دون الناس؛ فعن أبي الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل عليٌّ أخصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ما خصنا رسول الله ﷺ بشيءٍ لم يعم به الناس كافةً إلا ما كان في قِراب سيفي هذا، قال: فأخرج صحيفةً مكتوبًا فيها: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدِثًا»[3].

وكان رسول الله ﷺ يلاطف أصحابه ويداعب أطفالهم، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا،

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٢١)، ومسلم (ح ٢٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (ح ٩٦٩).
(٣) أخرجه مسلم (ح ١٩٧٨).

وكان لي أخ يقال له أبو عمير، فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: «**أبا عمير، ما فعل النُّغير؟**»[(١)].

وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله، ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[(٢)].

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «**يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟**» قال: قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله. قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيءٍ صنعته: لم فعلت كذا وكذا، أو لشيءٍ تركته: هلّا فعلت كذا وكذا[(٣)].

وكان يؤاكل أصحابه، فربما حضر الطعام معه الأعرابي حديث العهد بالإسلام أو الغلام والجارية ممن لا يعرف آداب الطعام والشراب فيأخذ بأيديهم ويعلمهم ويربيهم؛ فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: كنا مع

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٢٠٣)، ومسلم (ح ٢١٥٠).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٨/ ٩٩)، والترمذي (ح ٣٧٧٤).
(٣) أخرجه مسلم (ح ٦١٥٥).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتي بطعام، فجاء أعرابي كأنما يُطرَد فذهب يتناول فأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده، وجاءت جاريةٌ كأنها تطرد فأهوتْ فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيدها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الشيطان لما أعييتموه جاء بالأعرابي والجارية يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، بسم الله كلوا**»(١).

وعن عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت غلامًا في حِجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**»، فما زالت تلك طِعْمتي بعد(٢).

وعن رافع بن عمرو الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت غلامًا أرمي نخل الأنصار، فأتي بي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يا غلام، لم ترمي النخل؟**» قال: آكل، قال: فلا ترم النخل، وكل مما يسقط في أسفلها، ثم مسح رأسه، فقال: «**اللهم أشبع بطنه**»(٣).

وعن شداد بن الهاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنًا أو حسينًا، فتقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهري صلاته سجدةً أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدةً أطلتها

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٨/ ٣٩١).
(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٣٧٦)، ومسلم (ح ٢٠٢٢).
(٣) أخرجه أبو داود (ح ٢٦٢٢)، والترمذي (ح ١٢٨٨)، والإمام أحمد (٣٣/ ٤٥٢).

حتى ظننّا أنه قد حدث أمرٌ أو أنه يوحى إليك، قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أُعجِله حتى يقضي حاجته»[(١)].

وعن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي وهو حامل أُمامة بنت زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإذا سجد وضعها وإذا قام رفعها[(٢)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبيّ فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وَجْد أمه من بكائه**»[(٣)].

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من أتباع ملته المتحرين هديه وسنته وأن يشفِّعه فينا يوم القيامة، وصلِّ يا ربّ عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وسلِّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٢٤٣)، والإمام أحمد (٤٥/ ٦١٣).
(٢) أخرجه مسلم (ح ٥٤٣)، والإمام أحمد (٣٧/ ٢٠٤).
(٣) أخرجه البخاري (ح ٧٠٩)، وأبو داود (ح ٧٨٩)، والإمام أحمد (٣٧/ ٢٨٨).

المحتـــوى

تقديم ٥
بناء الكعبة ٩
ذرية إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٧
بقايا شريعة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند العرب ٢٠
نسب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٣
مولد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونشأته ٢٤
حفظ الله عَزَّوَجَلَّ للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في صغـــره ٢٦
كفالته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاة والدته ٢٨
إرهاصات النبـــوة ٣٠
الوحي وتبليغ الرسالة ٣٢
السابقون إلى الإسلام ٣٦
الجهر بالدعـــوة ٣٩
مقاومة الكفار لدين الإسلام ٤٢
حصار الشِّعب ٤٥
الإسراء والمعراج ٤٧
العرض على القبائل ٥٠
بيعة العقبـــة ٥٤

الهجرة إلى المدينة ٥٦
بناء مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٦٢
بيوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٦٥
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٦٩
المعاهدة مع اليهود ٧٣
فرض الجهاد في سبيل الله ٧٧
غزوة بدر الكبرى ٧٩
غزوة أُحـــد ٨٣
غزوة الخنـدق ٨٧
غزوة الحديبية ٩١
غـــزوة خيبـــر ٩٩
غزوة فتح مكـة ١٠٣
غزوة تبـــوك ١٠٧
حجـــة الـــوداع ١٠٩
وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١١٣
التربية والتعليم ١١٦
المحتوى ١٢٣

من إصداراتنا

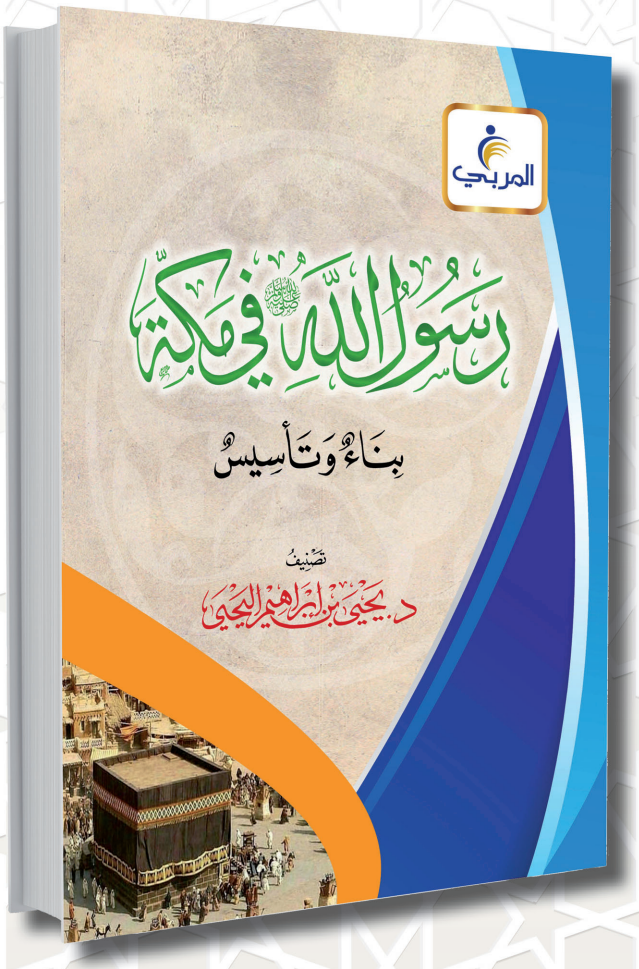

المربي
markaz.almurabbi@gmail.com